

المشكلة الإيطالية فى السياسة الألمانية

فى العصور الوسطى

الدكتور رافت عبد الحميد

أستاذ مساعد العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة عين شمس

فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، وعقارب الزمن تشير الى السنة الثانية من ستينيات هذا القرن ، كانت خشبة المسرح السياسى فى مدينة روما تعد ليعاد عليها تمثيل فصول مسرحية كان قد جرى اخراجها من قبل بمائة واثنين وستين سنة على وجه التحديد .

ففى ليلة عيد الميلاد لعام ثمانمائة ٠٠ أعنى الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ٧٩٩ ، تقدم الحبر الرومانى ليو الثالث ليضع على رأس ملك الفرنجة شارل العظيم (Charlemagne) Carolus Magnus تاجا ، وليعلنه امبراطورا للرومان وكان البابا ذاك قد تعالى من قبل فى الزمن صراخه ، مستغيثا بالملك الفرنجى ، متخوفا من ضربات اللومبارد فى الشمال الايطالى ، وعداوات نبلاء الرومان فى مدينة روما ذاتها ولما كان شارلمان يعلم يقينا ماسوف يجره عليه هذا التتويج من خلافت قد تصل الى العداء مع أصحاب الحق الشرعى فى التاج الرومانى على شطآن البسفور فى القسطنطينية ، فقد ادعى كاتب سيرته ومادحه اينهارد Einhard فى عمله الباقي Vita Caroli ان شارل

العظيم لم يكن يعظم عن هذه الناحية شيئاً^(١) وليس بخاف على أحد ان شارلمان — وان لم يكن قد خلع على نفسه لقب الامبراطور حتى تلك اللحظة ، الا أنه كان يحمل جوهره ، ويرفل في حقيقته نتيجة توسعته في فريزيا وسكسونيا ، وحروبه مع المسلمين في الأندلس ، ونشاطاته المتعددة في الداخل ، فخلطة سليمان الثقافي الى

والحقيقة التي لا مراءى فيها ، ان شارلمان العظمى امبراطورا في الغرب على يد البابوية ، كان يمثل التتويج العملى لرحلة طويلة من المودة والتفاهم بين مملكة الفرنجة اللاتينية ، ومن بعد الكارولنجية ، والكنيسة اللاتينية . بدأت منذ زمن طويل يعود الى عهد كلوفيس Clovis في أوليات القرن السادس الميلادى عندما تحول الفرنجة وحدهم — والناس في ذلك الزمان على دين ملوكهم ، الى المسيحية النيقية الكاثوليكية وراء زعيمهم ، دون القبائل الجرمانية الأخرى التي آوت الى المسيحية الأريوسية ، ووجدت لنفسها فيها مستقرا وإيماناً^(٢) هذا من ناحية ، ومن الأخرى مسيرة العداء السائر قدما ، والتباعد بين كل من روما والقسطنطينية ، بفعل التناقضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، يسرع لهيه حى الخلاف العقيدى الذى كانت الحروب

تسببها ، وشارلمان العظمى

(١) ناهضت هذه القضية باستنفاضة في تقديمى لترجمتى لكتاب العالم البيزنطى ص ١٦٦ — ١٦٧ ولمزيد من التفاصيل انظر

Einhard, The life of Charlemagne, trans. by : Lewis Thorpe, in (Two lives of charlemagne by Einhard and Notker stammerar). Penguin Book, 1969. G. Baraclough, The Mediaeval Empire : Idea and Reality.

وقد نقله الى العربية وعلق عليه الدكتور جوزيف نسيم يوسف في كتابه « الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى » ص ٣٨ — ٤٢ ، ١٨٣ — ١٨٩ . وراجع Bryce, The Holy Roman Empire, pp. 62-64. وأيضا : ديفز ، شارلمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ص ١٧٢ — ١٨٧ .

(٢) انظر للباحث الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع ، الفصل الثانى .

الملايقونية ذروة توهجه ، والتي وجدت فيها البابوية فرصتها للتخلص من نفوذ ولو أضعف السلطة الشرعية. تمثل في أباطرة بيزنطة ، إلى كيان تتبادل وإياه مصالح مشتركة ، تمنحه النتائج ، ويقدم لها الحماية والأمان .

والآن . . تؤدي البابوية بالمهارة نفسها ، ذلك الدور ، فبيعت البابا الغريغوريوس الثاني عشر صيحات الاستغاثة إلى الملك الألماني أوتو الأول السكسوني ، بعد أن راح اللومبارد يهددون ممتلكاته في وسط إيطاليا ، ويضيق النبلاء الرومان عليه الخناق داخل المدينة ، ويوقعون به الأذى ، بعد أن سرى في المدينة تهتكه وخلاعة مسرى الفضيحة (٣) .

وفي عام ٩٦٢ أثنى أوتو الأول روما ، وأعاد البابا إلى عرشه الأسقفى ، وأعلن بوجوده العسكري في مهينة القوميل بطرس حمايته لمراعى الكنيسة فيها ، فكان جزاؤه أن عاد إلى ألمانيا وحصل بتاج الإمبراطورية ، على غرار ماجري لشارل العظيم منق قرن ونصف من الزمان وينيف .

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي قدم فيها أوتو إلى إيطاليا ، لكن مجيئه السابق كانت له أسبابه الخاصة بإيطاليا وألمانيا على قدر سواء ، ولكن البابوية لم تكن صاحبة الدعوة آنذاك ، ذلك أن الفوضى التي ابتليت بها إيطاليا في القرن العاشر الميلادي ، ووثوعها بين أيدي قوى متعددة تتنازع أمرها على امتدادها الجغرافي ، كانت من بين العوامل الهامة التي

(٣) عن شخصية يوحنا الثاني عشر ، راجع

Stephenson, Mediaeval history pp. 243-245.

Strayer and Munro, The Middle Ages, p. 152 وايضا

ويصفه أورتون Orton بقوله « ليس هناك ذرة من أمل في انتشاله من فسوته » أنظر C.M.H. Vol. III, p. 161. وعن فساد البابوية بصفة عامة في القرن العاشر والدور الذي قامت به سيدات المجتمع الروماني أمثال ثيودورا وابنتها ماروزيا Marosia وسلطاتهم المباشر ونفوذهم في اختيار البابوات حسب هواهن ، راجع

Tout, The Empire and Papacy, pp. 29-30.

استحثت خطى الملك الألماني على أن يقود جيشه عبر الألب باتجاه الشمال الإيطالي ، فإيطاليا كانت قد أضحت نهبا للطامعين خارجها والعاثين فيها ، منذ أقدم الامبراطور جوستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥) على تدمير قوة مملكة القوط الشرقيين فى أوليات النصف الثانى من القرن السادس الميلادى • ورغم أن خليفته غير المباشر - موريس Maurice (٥٨٢ - ٦٠٢) حاول تدعيم النفوذ البيزنطى هناك أمام زحف اللومبارد الذين عصفوا بجهود جوستينيان بعد ثلاث سنوات فقط من وفاته واكتسحوا الشمال الإيطالي ، وذلك عندما أقدم على اقامة أرخونية رافنا ، التى يجمع حاكمها فى يديه السلطتين العسكرية والمدنية لمواجهة كافة الاحتمالات الا أن وجود نائب امبراطورى يتضايل كثيرا أمام وجود حكومة قوية مستقرة كانت تمثلها مملكة الاوستروقوط • كما أن وسط وجنوب إيطاليا لم يكونا بآمن من تهديدات المسلمين بعد أن تمت لهم السيطرة فى القرن التاسع الميلادى على صقلية ، وتعرضت روما نفسها لهجماتهم فى منتصف القرن ذاك • وهكذا باتت إيطاليا ، التى لم تعد سوى تعبيرا جغرافيا ، موزعة اشلاؤها بين اللومبارديين فى الشمال والوسط ، والبيزنطيين فى ابوليا Apulia وكالابريا Calabria بينما البابوية يمتد سلطانها على مناطق من وسط إيطاليا وترنو ببصرها الى أبعد من ذلك ، والمسلمون يشكلون خطورة لها أهميتها على السواحل الغربية وروما والجزر المجاورة •

فاذا أضفنا الى هذا التفسخ السياسى وحالة الضعف والتردى العام فى كل نواحي الحياة ، ثراء منطقة لومبارديا ، وخصب الريف الإيطالي ، وسحر روما القديمة بكلاسيكيتهما والوسيطه بمسيحيتهما وقديسيهما بطرس وبولس ، أيقنا أن هذه كلها كانت عوامل جذب تستحث أى غاز فيها أو طامع • وفى هذا السبيل بذلت المحاولات من ناحية رودلف الثانى Roudolf II ملك برجنديا ، عندما تم استدعاؤه فى عام ٩٣٠ من جانب النبلاء الإيطاليين ، ثم عاود الكرة مرة أخرى فى سنة ٩٤٧ • بل ان دوقات ألمانيا أنفسهم رنوا بأبصارهم عبر الألب الى هذه المنطقة ،

وفى مقدمتهم دوق سوابيا وهو ليودولف Liudolf ابن أوتو الملك الألماني ، وكذا هنرى المشاغب Henry the quarrelsome دوق بافاريا فى عام ٩٥١ طمعا فى توسيع رقعة ممتلكاتهم^(٤) .

ولا شك أن هذا الاتساع لممتلكات فصلين اقطاعيين من أفضال أوتو الأول ، حتى لو كان أحدهما ابنه • سوف يحمل فى طياته نذر خطر يتهدد سلطانه ، ولم يكن أوتو بالذى يقبل بقيام ملكية ضعيفة يصبح هو فيها فقط الأول بين أقرانه Primus inter pares كما تقضى سمات النظام الاقطاعى والملكية الألمانية الانتخابية ، ولكنه كان حريصا منذ البداية على أن يعيد الى الأذهان سيرة سلفه العظيم شارل الكارولنجى ، فتلقى تاج الملكية الألمانية فى آخن ، وأصر على أن يكون حفل التتويج نموذجا للتبعية المطلقة من جانب أفضاله الاقطاعيين وليس مجرد مراسم شكلية تقليدية^(٥) ومن ثم لم يتوان أوتو عن العمل ليقف فى وجه أطماع كل من ملك برجنديا ودوقى سوابيا وبافاريا ، وانتهاز فرصة الاستغاثة التى جاءت من ادلهيد Adelheid أرملة أحد المتنازعين على عرش مملكة

(٤) أنظر : Barraclough, The origins of modern Germany, pp. 49-51.

Scott, Medieval Europe, p. 71.

Strayer & Munro, op. cit., pp. 152-153.

وأيضا
وكذلك

(٥) فى المأدبة التى أعقبت مراسم التتويج قام الأمراء الألمان ، إيرهارد Eberhard دوق فرنكونيا ، وهرمان Herman دوق سوابيا • وأرنولف Arnolf دوق بافاريا ، وجيزلبرت Giselbert دوق اللورين بالمهام التشريعية مابين الحجابة وتقديم الشراب ورئاسة الخدم ، وكان هذا تقليدا رمزيا من النظام الإطاعى ، غير أن الأيام أثبتت بعد ذلك أن مفهوم أوتو عن الملكية الألمانية يجب أن يبدو على هذا النحو ، فكبار الأمراء الألمان لابد أن يكونوا أفضالا تابعين يعملون فى خدمة التاج ، أما دوقياتهم فليست إلا إقطاعا من الملك . أنظر :

Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 356.

Davis, A history of Medieval Europe, p. 216.

وأيضا

لومبارديا ، تطلب فيها عونه ضد برنجار Berengar ماركيز ايفريا
Ivria وقد حسم أوتو مشكلة الصراع على العرش بالزواج من
الأرملة الحسنة هذي ، وحمل دون مر اسم لقب ملك اللومباردين وترك
برنجار فصلا تابعا له في شمالي ايطاليا .

واذ كان دافع أوتو الأول للتدخل في ايطاليا عام ٩٥١ هو محاولته
الوقوف في وجه دوقى سوابيا وبافاريا ، والحد من أطماعهما ، فان هذين
لم يكونا أقل حرصا على مبادلاته المعاملة بالمثل ، فقد كان الأمراء العلمانيون
يدركون تماما ما الذي يعنيه وجود ملك قوى على العرش الألماني ، ولذا
فقد أعلنوها حربا أهلية ضروبا ، استهدفت في المقام الأول الإطاحة
بأوتو من على العرش ، كما استهدفت في الوقت ذاته حياته فاندلعت
الثورة وشارك فيها ابنه دوق سوابيا وكونراد دوق فرنكونيا ، ودوق
اللورين واستمرت قرابة السنوات الثلاث (٩٥٣ - ٩٥٥) حتى تمكن
الملك الألماني من إخمادها ، وكانت هذه الثورة السبب الرئيسي في أن يولي
أوتو وجهه شطر رجال الاكليروس ليجعل منهم جنده وأعوانه .

على أن النتيجة الرئيسية التي خرج بها أوتو من هذه الأحداث ،
تمثلت في سعيه الدائب لتحطيم سطوة كبار النبلاء ، وتقنين الدوقيات
الكبيرة ، حتى لا يجد فيها أصحابها سندا يحثهم على تحدى السلطة
الملكية ، بل أن هذه النظرة تخطت الأمراء العلمانيين لتمتد الى
الاكليروس ، ذلك أن السياسة الكنسية التي تبناها أوتو وسار عليها
خلفاؤه ، وكانت بعينها تلك التي وضع قواعدها الأباطرة قسطنطين
(٣٠٦ - ٣٣٧) و ثيودوسيوس (٣٧٨ - ٣٩٥)

Theodosius I وجوستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥) Justinian
والتي اذا كانت تعترف بحق الكنيسة في مناقشة المسائل العقيدية ووضع
نظمها ، فانها مع ذلك تظل مجرد هيئة حكومية شأنها شأن باقي الهيئات
الأخرى تحت سلطان الامبراطور الذي عد نفسه مسئولا مسؤولية مباشرة
أمام الله . ثم أليس يبين الأول Pepin I هو الذي دافع عن

البابوية ، وعن طريق هبته الشهيرة نشأت الدولة البابوية ؟ ألم يكن شارلمان وخلفاؤه هم الذين حموا البابوات وأثروا الكنيسة ؟ ومن ثم فرجال الكنيسة ، شأن الموظفين العلمانيين ، ليسوا الأرواحا الأباطور ، انطلاقا من إعطاء ما لقيصر لقيصر (٦) . وفي المقابل كانت الكنيسة ترفض أى سلطان دنيوى عليها فهي قد نشأت دون مساعدة أحد ، وكثيرا ما كتب أبائهم وعلى رأسهم أوغسطين *Augustinus* أن المؤسسات السياسية كانت النتيجة النهائية لخطيئة آدم (٧) .

وبناء على ذلك ، يمكننا أن نفهم الخلاف الذى وقع بين كل من أوتو الأول وابنه غير الشرعى الذى كان أسقفا لمينز *Mainz* ، عندما حاول الملك الألماني التدخل فى شئون الكنيسة هناك ، فرفع الأسقف الابن الأمر إلى البابوية فى روما . وهناك أدرك أوتو أن أياديه البيضاء على الكنيسة الألمانية مازالت قاصرة عن تحويل الولاء الكامل لرجال الكليروس إليه ، وأيقن الرجل أن الكنيسة الألمانية ليست بمعزل عن الكنيسة الأم فى روما ، وأنها ليست مستقلة للشأن ، ولذا فقد آمن أن عليه إذا ما أراد السيطرة على الكنيسة الألمانية بعامة أن يسيطر سلطانه أولا على الكنيسة الرومانية ، أو بتعبير آخر ، فإن الطريق إلى الكليروس الألماني يبدأ من روما .

وواتت أوتو الفرصة عندما استدعته الأحداث فى روما نفسها ، ممثلة فى رجاء البابا يوحنا الثانى عشر أن يخف لئلا يجدته من مضايقات

(٦) أنظر : Stephenson, op. cit., p. 247.

(٧) أنظر Pirenne, A history of Europe, pp. 136-7; 184-5.

وراجع : Augustinus, De Civitate Dei, XXII, 22.

وكذلك Paoluci, The political writings of St. Augustinus, pp. 1-183.

برنجار وطموحه الذى يهدد الأملاك البابوية • ورغم أن يوحنا كان يلح فى طلبه منذ علم ٩٥٧ ، إلا أن أوتو كان مشغولا عن البابا بنفسه ، يحاول تثبيت دعائم سلطانه ، والقضاء على المؤامرات التى كانت تبتغى رأسه ، فلما أفاق كان عليه أن يسرع الخطى الى روما ليحجب البابا الى مطلبه وليحقق فى المقام الأول سيادته على رأس الكنيسة الرومانية •

وفى فبراير ٩٦٢ ، وفى نفس المكان الذى توج فيه شارلمان من قبل مائة وأثنتين وستين سنة تلقى أوتو الأول الملك الألماني ، من يد يوحنا الثانى عشر ، البابا الرومانى ، تاج الامبراطورية • وهذه الحادثة تشير بما لا يدع مجالا للشك الى أن أوتو الأول راح يسلك سبيل سلفه العظيم شارل ، أو على حد تعبير أحد المؤرخين الألمان ، أن الملكية الألمانية كانت موجهة الى السير على درب الثيوقراطية الكارولنجية ^(٨) مع فاروق لا يخفى شأنه ، هو أن الكارولنجيين عملوا على جعل الدولة هيئة دينية ، بينما حاول أوتو أن يجعل من الكنيسة مؤسسة دنيوية ^(٩) •

وما كان لأحد أن يدعى لقب ملك اللومبارد ، ويتشج برداء شارلمان ، ويحمل لقب امبراطور الرومان ، ويتدخل بصورة عملية ومباشرة فى شئون ايطاليا « الممزقة » ، دون أن يورط نفسه ودولته فى مآزق لا حصر لها ، وأن يفتح على نفسه جبهات من العداء كان عليه حتما مقضيا أن يكتبى بمياسم سعيها ، بفعل الاضطرابات الداخلية بين اللومبارديين والبابوية والنبلاء الرومان والبيزنطيين والمسلمين ومن بعد النورمان •

على أنه مما تجدر الاشارة اليه بادية ذى بدء ، أن أوتو الأول جاء الى ايطاليا بدافع من المصالح الألمانية فى المقام الأول ، وأن ظروف ألمانيا الداخية ، ومحاولته المستميتة اقامة ملكية ألمانية قوية ، يجلس على عرشها ملك مقتدر ، يحنى له الأفصال من العلمانيين والاكليروس ، الهام

8) Joachimsen, The investiture contest and the German Constitutions, p. 98.

9) Pirenne, op. cit., pp. 136-7, 184-185.

اجلالا وتوقيرا ، كانت الباحث الرئيسي وراء مقدمه على التدخل في المشكلات الإيطالية . وإذا كانت الدعوة قد جاءت من البابوية ، فإن الدافع كان كامنا في ألمانيا . خاصة وأنها كانت في القرن العاشر الميلادي تفوق بكثير جاراتها ، وأصبحت ذات مركز مرموق في قيادة عالم المسيحية في الغرب الأوروبي^(١٠) ومن ثم فلامجال هنا لما يرمى به بعض المؤرخين أوتو من لوم معتبرين اياه قد انساق بذهابه الى ايطاليا وراء تحقيق مكاسب شخصية وسمعة ذائعة يعيد بها لنفسه ذكرى سلفه العظيم شارل^(١١) وان كان هذا لاينفى أن أوتو الأول هو الذى وضع أسس سياسة الارتباط الكامل بين ايطاليا والمانيا ، لقرون طويلة سواء في القوة أو الضعف^(١٢) وما ترتب على ذلك من عواقب وخيمة لهذه وتلك .

10) Mayer, The historical foundations of the German Constitutions.

والحقيقة أن ألمانيا كانت أسعد حظا من فرنسا وانجلترا في القرنين التاسع والعاشر ، ففي فرنسا بعد عزل شارل السمين سنة ٨٨٧ دخلت فرنسا في حرب أهلية لمدة قرن بين أفراد البيت الكارولنجي وأمراء باريس ، بينما تحطمت ايطاليا تحت ضربات النبلاء ، وعانت انجلترا الكثير من هجمات الدانين بعد وفاة الفرد العظيم سنة ٨٩٩ وخاصة في النصف الثاني من القرن العاشر وأوليات سنى القرن الحادى عشر ، هذا في الوقت الذى أقدم فيه الأمراء الألمان على اختيار أرنولف الحفيد غير الشرعى للويس الألمانى ، ورغم أن هذا أدى الى احياء التقليد الجرمانى القديم الخاص بحق اختيار الزعيم ، وقاد الى تقوية نفوذ النبلاء واضعاف سلطان الملكية على المدى طويل ، إلا أنه أعطى ألمانيا حكما قويا . وقد عاد الأمراء الألمان الى ممارسة حقهم ثانية سنة ٩١١ بعد وفاة لويس الطفل واختاروا كونراد دوق فرنكونيا . انظر :

Barlow, The feudal Kingdom of England, pp. 1-3.

Strayer & Munro, op. cit., pp. 147-149.

C.M.H. vol. III, pp. 311, 323-325.

وايضا
وكذلك

11) Stephenson, op. cit., pp. 245-247.

Ch. Brooke, Europe in the Central Middle Ages, p. 163.

ودكتور سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى . ج ١ ص ٢٧٥

12) Tout, op. cit., p. 32.

Pirenne, op. cit., p. 139.

وايضا

فلقد كان حمل لقب « امبراطور الرومان » يثير من الناحية القانونية مشكلة تستعصى على الحل ، فهذا اللقب وان كان بصورة أخرى — أعني « الامبراطور الروماني » يحمله الأباطرة الرومان الشرعيون في القسطنطينية ، وليس لأحد أن ينافهم فيه • فمسلسلة الأباطرة هناك لم تنقطع ابتداء بأوكتافيانوس أوغسطس في روما القديمة ، الى قسطنطين العظيم في روما الجديدة ، وصولا الى الجالس على العرش آنذاك نجفور فوقاس Nicephorus Phocas والنظرية السياسية الرومانية لا تعترف أبدا بوجود امبراطوريتين رومانيتين ، بل هي امبراطورية واحدة ، حتى وان جلس على عرشها أربعة أو ثلاثة أو اثنان ، بل وان تنازع على هذا العرش ستة أباطرة (١٣) •

وليس أدل على ذلك من أن المعاصرين الجرمان ، وهم أعداء الامبراطورية ، البعيدون حضاريا عن سمتها ، قد أدركوا هذه الحقيقة في جلاء ، ويتضح هذا مما أقدم عليه القائد الجرمانى أوداكر Odovacar في عام ٤٧٦ عندما عزل رومولوس أوغسطس Rumulus Augustulus آخر أباطرة النصف الغربى من الامبراطورية ، وبعث بتاجه وهولجائه مع وفد من النشأت الروماني ، الى امبراطور النصف الشرقى فى القسطنطينية ، زينون Zeno وراح يوضح على لسان مبعوثيه أن الامبراطورية يكفيا الان وجود حاكم واحد على عرشها هو القائم بالفعل على شطآن البسفور في مدينة قسطنطين ، ويطلب اليه أن يعقبه نائبا عنه فى حكم ليظليا • وبغض النظر عن النتيجة التى انتهى اليها أمر أوداكر وموقف زينون منه ،

(١٣) على عهد الامبراطور دقلديانوس كان يحكم الامبراطورية أوغسطسان وقصران ، وهو النظام الرباعى Tetrachia الذى وضعه دقلديانوس ، ولما توفى قسطنطين عام ٣٣٧ خلفه ابناؤه الثلاثة ، بينما خلف ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ ابنه اركاديوس فى النصف الشرقى وهونوريوس فى النصف الغربى ، اما الأباطرة الستة الذين تنازعوا على عرشها فقد كان ذلك فى عام ٣٠٨ بعد اعتزال دقلديانوس سنة ٣٠٥ •

فهذا بلا شك يعد اعترافاً صريحاً من جانب أحد زعماء الجرمان بوحدة الامبراطورية . ولم يدرك بخلد أودواكر ، وكان باستطاعته ذلك ، ولا بخلد غيره من زعماء بني جنسه ، أن يعلن من نفسه امبراطوراً منافساً أو حتى شريكاً ، وكان بمقدورهم جميعاً أن يفعلوا ذلك بعد أن أصبحت بيدهم مقاليد الأمور في شطري الامبراطورية عقيب وفاة ثيودوسيوس عام ٣٩٥ (١٤) .

وهكذا لم يعجز أحد من الجرمان على أن يفعل ذلك حتى عندما تساقطت ولايات النصف الغربي للامبراطورية في أيديهم ابان القرن الخامس الميلادي وطوال قرون آتية . ومن ناحية ثانية فإن للحروب العسكرية التي خاضها الامبراطور جوستينيان *Iustinianus* (٥٢٧ - ٥٦٥) على امتداد ربع قرن من الزمان لاستعادة ولايات الغرب هذه الضائعة ، خير دليل على حرص الأباطرة الرومان على تحقيق النظرية السياسية الرومانية القائلة بالامبراطورية الواحدة . ولم يكن خلفاء جوستينيان أقل « رومانية » منه في هذا السبيل وإن اختلفت أساليبهم السياسية عن سلفهم العظيم .

وهكذا أحجم الجرمان في ضوء (وعيهم) بوحدة الامبراطورية عن اقامة امبراطور من بينهم في الغرب ، ولكن البابوية اجترأت عندما توجت الجرمانى الفرنجى شارلمان امبراطوراً ، متحدية بذلك مشاعر الأباطرة الرومان في المقسم ~~الغربي~~ ^{الغربي} . وكل هذا هو الذي دعا كاتبه ومؤرخه اينهارد *Einhard* أن يذكر في كتابه « حياة شارل » *Vita Caroli* عدم معرفة الامبراطور مسبقاً بمسألة التتويج ، رغم ما في هذا القول من مغالطة واضحة (١٥) كي يظهر سيده بمظهر

(١٤) كان ستيلكو الجرمانى هو القائد العام لجيوش الامبراطورية ومقره في الغرب « ميلانو » حيث توفي ثيودوسيوس . بينما آلت الى زميله جايناس لجرمانى الأمور في القسطنطينية .

15) Einhard, The life of Charlemagne, 28.

الذي لم يكن طامعا في شيء من ذلك، حتى لا يجبر على دولته عدا
القسطنطينية. وقد لعبت دورا هاما في حياة القسطنطينية.

والبابا في روما - بعمله هذا - تخطى حدود سلطانه الروحي وراح
يمارس سلطات زمنية غير قانونية، فهو من الفاحية الرسمية واحد من
رعايا الامبراطور، لكنه لمنافع دنيوية ومصالح شخصية^(١٦) ولعداوات
طويته بين روما والقسطنطينية، زادها ضراما تأجج نيران العدا تجاه
الايقونات الذي حمل الاباطرة الايزوريون والعموريون مشعله، ووقوف
روما معارضة متجددة، كل هذا دفع البابوية كي تتوج جرمافيا امراطورا
لرومان. وكان هذا - أعني لقب «امبراطور الرومان» وليس
«الامبراطور الروماني» بالآلف واللام والنسبة، هو الذي حمله شارلمان.
وحتى على هذا النحو لم يحظ شارل العظيم الا باعتراف واهن في عام
٨١٢ من جانب الامبراطور ميخائيل رانجابه Michael I Rangabe
نتيجة لظروف سياسية عصبية كانت تعانيتها الامبراطورية البيزنطية، ولم
يكتب لهذا الاعتراف أن يرى دائرة الضوء لأن مجلس السبناتو في
القسطنطينية لم يصدق عليه، ولم يلبث الموت أن اختفى بشارلمان من
الحياة^(١٧).

ومن ثم فإن الامبراطورية البيزنطية وهي في أوج قوتها وازدهارها
زمن المقدونيين، عصرها الذهبي، لم تكن أقل حرصا على بقاء اللقب
الروماني من حق اباطرتها وحدهم دون غيرهم. وكان أوتو الأول يعلم

16) Ibid, 28.

17) Ibid, 17.

Vasiliev, History of the Byzantine Empire, I, p. 268.

وايضا ديفز: شارلمان، ترجمة دكتور السيد البار العريني. ص

١٧٨ - ١٨٩. وقد ترجمت هذه الرسالة في مجلة المشرق، ١٩٨٠.

ودكتور نور الدين خاتون: تاريخ العصر الفوسيط في أوروبا. ص ١٧٨
وكذلك دكتور جوزيف نسيب يوسف: الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى

من ١٧٨ - ١٨٨. ص ١٨٨. (J. Chevalier, 1980).

هذه الحقيقة تماما ، حتى أن لقبه التقليدي ظل «الإمبراطور العظيم» (Imperator Augustus) ولم يرد ذكر روم فيه ، ولهذا كان هذا اللقب مجرد منصب شخصي فحسب . ومع ذلك ، فإن عملية التتويج وما تبعها من التدخل الرسمي في شئون إيطاليا ، وضعه وجهها لوجه أمام الامبراطورية الرومانية « البيزنطية » في وقت كانت آخذة في المصمود والاستعداد للعودة إلى الغزو تحت قيادة نقفور فوكتاس (١٨).

ومع ذلك فقد كان واضحا بصورة جلية أن من المستحيل أن تحتفظ بيزنطة بمركز قوى لها فيما كان يعرف واقعا بالجزء الغربي pars Occidentalis أمام قوة المسلمين في الجنوب الإيطالي وعداء الملوك السكسون ، الأباطرة الجدد ، ولهذا منعت للحفاظ على الحالة الراهنة status que هناك ، وشرع الإمبراطور ناسل الثاني في تنظيم الحكم البيزنطي في ولايتي إيطاليا الجنوبية اللتين اتحدتا الآن تحت سيطرة حاكم واحد يعرف باسم قطبان Catapan لا يختلف عن الأكرارك ويجمع في يديه السلطتين المدنية والعسكرية (١٩) . ورغم أنه كان أمرا بعيد الخال أن يقوم في الغرب شبيه لتلك الامبراطورية الرومانية Imperium Romanum القائمة في القسطنطينية . إلا أن خلفاء أوتو الأول ، خاصة سيميه ، ولده وحفيده ، وهنري الثاني ، انتهزوا فرصة الظروف الصعبة للإدارة البيزنطية في إيطاليا ، وحمل أوتو الثاني لقب امبراطور الرومان وأصبح ملازما له لايفارقه ، وظهرت عبارة « الامبراطورية الرومانية » في المكاتبات الرسمية من هنري الثاني وكونراد الثاني (٢٠) . وبات الفرق واضحا بين سياسة أوتو الأول الذي

(١٨) جوزيف نسيم يوسف : الدولة والامبراطورية . ص ٢٠٦

(١٩) هسي : العالم البيزنطي : ترجمة دكتور رافت عبد الحميد . ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢٠) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق . ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ولينا Bryce, op. cit., pp. 142-146.

جاء الى ايطاليا لدوافع المانية ، وسياسة خلفائه الذين استهوتهم فكرة « الامبراطورية » ، أو على حد تعبير المؤرخ باراكلاف هو الفرق بين السياسة « العسكرية » لاوتو الأول ، والسياسة (الرومانية) لخلفائه (٢١) .

وإذا كان التدخل الألماني في ايطاليا ومشكلاتها العديدة ، حتى غدا الارتباط بينهما وثيقا ، قد أغرى الأباطرة الألمان بالاضطراع مع «بيزنطة» حول « رومانية » الامبراطورية في الغرب ، فان الرغبة الشديدة في الوصول الى حوض البحر المتوسط ، وهي منطقة لها أصالتها الحضارية ، كان باعثا قويا لزيادة حدة الصراع مع القسطنطينية ، صاحبة السيادة الآن أعنى القرنين العاشر والحادي عشر ، على حوض البحر المتوسط الشرقي بعد انحصار موجة المد الاسلامي فيه آنذاك . وهذا كله يفسر المحاولات العسكرية التي قام بها أوتو الأول وولده أوتو الثاني في جنوب ايطاليا من أجل فرض السيطرة الألمانية على هذه المنطقة ، وتوسيع حدود « الامبراطورية » على حساب البيزنطيين والمستعمرين على السواء غير أن هذه الجهود باءت بالفشل ، بل ولقى أوتو الابن هزيمة مروعة عند خليج كولون سنة ٩٨٢ على يد المسلمين ، أفلت منها هو نفسه بصعوبة بالغة . وكانت هذه الهزيمة كارثة فادحة لحقت بالامبراطورية الألمانية ، ظهر أثرها وأصحا في أنها قضت لمدة قرنين تالين على طموح الامبراطورية الغربية في السيطرة على وسط ايطاليا وجنوبها (٢٢) .

ولم تحل المناوشات العسكرية بين الطرفين دون تدخل الجهود الدبلوماسية بين الامبراطوريتين ، فدارت المفاوضات بين الطرفين زمن

(21) The origins of modern Germany, p. 62.

(٢٢) C.M.H. Vol. III, 169-170. وأيضا دكتور سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ص ٢٧٩ وكذلك دكتور إبراهيم طرخان : المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى ص ٢٦٤ وأيضا : Vasiliev, op. cit., I, p. 328.

أوتو الأول ونقفور فوقاس ، تتضمنها ذلك التقرير
 Relatio de Liutprand Legatione Constantinopolitana
 أسقف كريمونا Cremona مبعوث الإمبراطور الألماني ، والذي
 يتسم بالجدد والسخرة اللاذعة تجاه البيزنطيين الذين لم يستقبلوا
 الأسقف — في اعتقاده — بوظاهر الحفاوة والتكريم اللائق به . وقد
 استمرت هذه المفاوضات على عهد يوحنا تريمسكس
 Iohannes Tzimisces وكان أقصى ما استطاع أوتو الحصول عليه ، زوجة
 بيزنطية تدعى ثيوفانو Theophano لابنه ووريثه أوتو الثاني ، وهي
 تنتمي لأسرة من كبار ملاك الأراضي ، وليست من البيت الإمبراطوري
 كما كان يشتهي .

وقد ساهمت التغيرات السياسية التي طرأت على خريطة المنطقة
 في ازدياد ما بدا أنه تقارب ودي بين الإمبراطوريتين ، ذلك أن النورمان
 وقد ورثوا البيزنطيين والمسلمين على السواء في جنوب إيطاليا وصقلية
 في القرن الحادي عشر ، ورثوا أيضا العجاء التقليدي تجاه الإمبراطورية
 الألمانية ، ومن ثم أدرك الطرفان أن عليهما أن يعملتا معا ضد عيديهما
 المشترك ، وظهر هذا واضحا في عدة أمور منها ، زواج الإمبراطور مانويل
 كومنينوس Manuel Comnenus (١١٤٣ - ١١٨٠) من برتا Bertha
 من سولزباخ Sulzbach أخت زوجة كونراد الثالث Conrad III
 (١١٣٩ - ١١٥٣) وهي التي عرفت باسم الإمبراطورة إيرين Irene
 عند اقترانها بمانويل (٢٤) . وأدى هذا الزواج السياسي الى زيادة التقارب
 بين الرجلين خلاصة بعد فشل الحملة الصليبية الثانية التي قادها كونراد

23) Liutprand of Cremona, report, in: Contor, Med. World
 pp. 166-176.

(٢٤) كانت المفاوضات قد جرت بشأن هذه الزيجة بين يوحنا كومنينوس
 (١١١٨ - ١١٤٣) وكونراد ، حيث طلب الأول الى الأخير أن يختار من بين
 الأميرات الألمانيات زوجة لابنه مانويل أنطونيوس .
 Letter of Conrad III to the «Greek emperor John Comnenus 1142

الثالث بالاشتراك مع لويين السابع ملك فرنسا ، فقد تم عقد اتفاقية سالونيك بين مانويل وكونراد الثالث ١١٤٨ ، تمهد فيها الأخير بورد إيطاليا إلى الامبراطور كاثانة لايرين (برتا) ، وان كانت هذه الفقرة من المعاهدة قد اختفت من المصادر الغربية ، وتداول أهميتها أساسا حول ما تعنيه كلمة « إيطاليا » ، هل تعني جنوب إيطاليا فعصب أم إيطاليا كلها ؟ (٢٦) .

غير أن فترة العسل القصيرة هذه سرعان ما انتهت باعتلاء فردريك برباروسا Frederick I Barbarossa عرش ألمانيا ، فقد كان الرجل يطمح في مملكة النورمان في صقلية وعرش القسطنطينية على السواء . ولذا نراه يتفق مع البابا يوجنيوس الثالث Eugenius III على عدم التخلي عن « أية منطقة » على هذا الساحل « ملك اليونان » Rex Grechorum وهي التسمية التي كان يخلو لفردريك الألماني أن يخلعها على امبراطور القسطنطينية ، بل إن هذا اللقب جرى استخدامه من جانب الأباطرة الألمان ، كما يتضح من الرسالة التي بعث بها كونراد الثالث ليوحنا كومنينوس سنة ١١٤٢ (٢٧) ومع ذلك فقد حاول الامبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس أن تظل روابط المودة قائمة بين الدولتين ، فعرض عليه التحالف ضد النورمان في الجنوب ، لكن هذه المحاولة ذهبت سدى ، وأن كان السفير البيزنطي قد نجح بدبلوماسيته وأمواله في ضم عدد من المدن على رأسها انكونا Ancona والمتمردين النورمان ، وأخيرا البابوية ، مما عده فردريك خرقا لاتفاقية كوستانس (٢٧) .

وألم هذا التغير في السياسة الألمانية ، شن مانويل هجومه على

(٢٥) هسي العالم البيزنطي . ص ١٩٣ وقارن

Ch. Brooke, op. cit., pp. 373-4.

وايضا : Z. N. Brooke, A history of Europe, 911-1198, pp. 284-331.

26) Letter of Conrad III to the « Greek emperor John Comnenus, 1142

Letter of Frederick I. to Eugene III.

وايضا :

27) Z. N. Brooke, op. cit., pp. 292-294.

جنوب إيطاليا، ففتزها الفرصة التي قدمها له الثائرون النورمان عقب وفاة روجو الثاني سنة ١١٥٤م غير أنه لم يحقق نجاحاً قيسياً، بل ازدادت حدة العداء تجاه القسطنطينية من جانب فردريك، برباروتيل الذي راعى بشجع سلطان بقونية السيمفوجوفى على المجاهرة بالاعتداء على الأهرات البيزنطية، حتى إذا لقي أهل هذه الهيمنة القاسية عى عند فيزيو في القلوم *Myriocephalum* في أسيل الصغرى سنة ١١٧٧م كتب فردريك إليه رسالة تقطو لاحتقار وتوصى إلى ضرورة خضوع «ملك اليونان» *Ben Greorum* للأمبراطور الرومانى، يعنى نفسه، وأعلن فردريك نفسه بوريثاً للأباطرة الرومان، وادعى أن ذلك يتفصل للسيطرة على المملكة اليونانية (١١٨٠) *Regnum Grecia* بل أن فردريك برباروتسا تملدق فى سياسته، فكتب إلى ابنه وخليفته فى ألمانيا، هنرى السادس وهو فى الشرق يقود جعافله ضمن قوات الحملة الصليبية الثالثة، يأمره بإعداد حملة جديدة تستهدف القسطنطينية قائماً، ورغم أن هذا لم يتحقق إلا أنه يدل على مدى العداء بين الأباطرة البيزنطية والإمبراطورية الألمان. غير أن الظروف السياسية التي رايت تعاني كل منهما منها باعدت بين عدائهما، إذ لم تفض سنوات قلائل على وفاة فردريك برباروتسا (١١٩٠) حتى دهمت جحافل اللاتين جنود الحملة الصليبية الرابعة، القسطنطينية عام ١٢٠٤م، فخرجت بذلك الإمبراطورية البيزنطية من العاصمة لتقوم فى نيقية وإبيروس وطرابزون، ولتجل محلها إمبراطورية لاتينية حتى عام ١٢٦١ عندما تمكن ميخائيل الثامن باليولوجوس *Michael VIII Palaeologus* حاكم نيقية من استعادة القسطنطينية. بينما دخلت إمبراطورية الألمان فى صراع عنيف مع البابوية حول مشكلة التقليد العلماني وما تبعها من النزاع على السيادة العالمية، بالإضافة إلى المحاولات الجادة التي بذلتها أسرة الهوهنشتا وفن *Hohenstaufens* فى ألمانيا للسيطرة على مملكة النورمان فى صقلية وجنوب إيطاليا، مما يشكل خطراً جسيماً على نفوذ البابوية وسلطانها وسط إيطاليا.

وكانت البابوية قد اعترفت في اتفاقية ملفى Melfi التي عقدت سنة ١٠٥٩ ، بين نيقولا الثاني Nicholas II من ناحية ، وزعيم النورمان ، ريتشارد دوق أفرنسا Aversa وروبروت جويسكارد بشرعية حكم النورمان لجنوب إيطاليا ، مقابل اعترافهم بالتبعية للبابوية ودفع جزية سنوية (٢٩) . ولقد جاء هذا نتيجة لفشل البابا الراحل ليو التاسع في التصدي لطموحهم ، وهزيمته على أيديهم عند كيفيناتي Civitate عام ١٠٥٣ . وأمره لديهم بضعة شهور * . كما أن البابوية وجدت فيهم — ربما — حليفا طبيعيا ضد أعدائها من النبلاء الرومان في روما ، وعدوها اللدود ، الامبراطور الألماني * . وبتعبير أدق فقد وجدت فيهم الى جانب أسلحتهم الروحية « الهرمان والمصادرة » سلاحا زمثيا فتاكاً ، بما لهم من قوة عسكرية ترهب بها أعداءها * . وتغل هذا بصورة واضحة عندما استجد بهم البابا جريجورى السابع للتصدي لقوات هنرى الرابع فى فرضت حصارها على روما وهاجمتها عدة مرات فى الفترة ما بين عامى ١٠٨١ — ١٠٨٤ . ولأن كان النورمان ، حلفاء البابوية ، لم يراعوا للمدينة حرمة ، فلستياجوها وعاثوا فيها فسادا . مما دفع جريجورى السابع الى الارتجال فى حملتهم جنوبا فرارا من الغضب المتأجج فى صدور رعيته الرومانية تجاهه باعتباره المسئول الأول عما فعله حلفاؤه النورمان . ولم تلبث هذه العلاقات الودية أن تحولت الى تحالف رسمى بين البابا هادريان الرابع ووليم الأول ملك صقلية سنة ١١٥٩ ، كانت أهم سماته اعتراف البابوية بحق الملك النورمانى فى الاشراف على عملية اختيار رجال الاكاثوس فى مملكته (٣٠) . وهو الحق الذى تدعيه البابوية لنفسها ، وتتنازل من أجله خدملوك ألمانيا طيلة أربعة قرون كاملة (من العاشر حتى الثالث عشر) ، نعى مشكلة التقليد العثمانى ثم السيادة

29) Oath of Robert Guiscard to Nicholas II 1059.

وليزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث . . . انظر

Haskins, The Normans in European history, pp. 202-204.

(٣٠) راجع نص الاتفاقية فى

Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history,

pp. 181-183.

العلانية • ويمكن القول بصورة واضحة ان هذا التحالف كان موجها بصفة رسمية الى فردريك الأول برباروسا ، الامبراطور الألماني ، الذي لم يكن طموحه يخفى على ملوك النورمان في صقلية ، ولا خطره يغيب عن البابوية • خاصة وأن فردريك كان يعتبر أقاليم جنوب إيطاليا وصقلية جزءا من مملكة الألمانية ، مما دفعه الى ابداء معارضته واحتجابه لدى هادريان الرابع على هذا التحالف • معتبرا اياه نقضا لشروط معاهدة كونستانس ^{Constance} التي وقعت بينهما عام ١١٥٣ وتجاهلا لادعاءاته هذه ^(٤١) • غير أن هادريان الرابع كتب الى فردريك رسالة مطولة تحض فيها هذه الاتهامات ، وأبان عن أن اتفاقه مع النورمان لايعني اهانة موجهة الى الملك الألماني « لأن الأراضي التي يسيطر عليها ولیم ، ليست من حق فردريك ، بل هي ممتلكات البابوية » ^(٤٢) مشيرا الى ما جاء

(٣١) من المعروف أن نص المعاهدة لم يتضمن شيئا مطلقا عن حقوق الملك الألماني في جنوب إيطاليا وصقلية ، راجع نص المعاهدة في Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 178-180.

(٣٢) راجع نص الرسالة في Tierney, The crisis of church and state pp. 105-106. وايضا : Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 183-185. وهذه الرسالة ذات مدلول هام في تاريخ الصراع الطويل بين البابوية والامبراطورية ، فقد تضمنت كلمة *beneficia* والتي فسرت في حضرة الامبراطور في بيزانسون Besancon سنة ١١٥٧ على انها تعنى كون الامبراطورية « اقطاعا » للامبراطور ، وكاد المندوب البابوي يلقي حتمه على يد أنصار فردريك لولا تدخل الآخر بنفسه لمزيد من التفاصيل أنظر : Thompson & Johnson, op. cit., p. 400.

وايضا : C.M.H. Vol. V, pp. 390-391. وكذلك : Bryce, op. cit., p. 166. Davis, op. cit., p. 326. وقد اصير فردريك برمايوسا بيانا في الشهر التالي لمباشرة (اكتوبر ١١٥٧) فينفد فيه — ما اعتقد أنه ادعاءات بابوية ، واضطر هادريان الرابع أن يبعث برسالة ثانية الى الامبراطور في أوائل عام ١١٥٨ يوضح فيها أنه لم يعن بكلمة *beneficia* « اقطاعا » بل يعنى بها « جميلا » او (عميلا طيبا) . راجع بيان فردريك ورسالة هادريان الثانية في Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 186-188.

وعن هذا التفاصيل كلها ، راجع للباحث « السمو البابوي بين النظرية والتطبيق » بحث منشور في المجلد الثالث من « ندوة التاريخ الاسلامي والوسيط » .

فى اتفاقية « أملا فى » باعتهو الممتلكات الفورمانية فى الجنوب اقطاعا بابويا .

ورغم ذلك لم يتخل فردريك برباروسا لحظة واحدة عن ادعاءاته فى جنوب ايطاليا وصقلية وتمكن من أن يحقق نجاحا كبيرا فى هذا الميدان عندما حظى بالأميرة كونستانس Constance ابنة وليم الثانى وريثة عرش النورمان ، زوجة لابنه هنرى السادس ، فكسب لنفسه بهذه الزيجة مكانة ، ولدولته اتساعا ، ولسلطانه امتدادا . ولكن هذا كله لم يمر هكذا حسبما تشتهى نفس فردريك الطموحة ، فجرت الظروف السياسية فى المنطقة على غير ما كان يتمنى هو أو خلفاؤه ، ذلك أن الارتباط الوثيق بين المانيا وجنوب ايطاليا وصقلية كان يعنى للبابوية وقوعها بين شقى الرchy ، وهو ما كان من المستحيل على البابوية تقبله . ولما كان طبيعيا أن يعرض الملوك الألمان على ما اكتسبوه بالنواجز ، وتبذل البابوية الجهد ، كل الجهد ، فى سبيل العيولة دون نجاحه ، جرى النزاع سافرا أحيانا ، خفيا أحيانا أخرى ، بين الطرفين ليزيد حمى الصراع والعداء بينهما الى درجة أسفرت فى النهاية — كما سنرى — عن تحطيم الامبراطورية .

ولم يكن من السهل نجاح هذا الارتباط بين المملكتين الألمانية والصقلية ، للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة عند كل منهما ، والميراث الحضارى المائل لكليهما ، فما خلفه المسلمون فى صقلية على امتداد قرنين من الزمان ، هما فترة مكثهم فيها والذي حرص التورمان ، السادة الجدد ، على الافادة منه الى حد بعيد جدا ، كان يعد شيئا مغائرا تماما لما كان عليه الحال فى ألمانيا ، وبينما كانت الملكية فى المانيا انتخابية ، اذا هى وراثية فى صقلية . كما أن القطيعة الجغرافية بينهما والتي طولها شبه الجزيرة الايطالية ، تعتبر حائلا طبيعيا يباعد بين كليهما . وبمقتضى المعاهدات التى عقدت بين البابوية وملوك النورمان

فى صقلية ، كان هؤلاء الآخرون ، أو بعضهم يعتبرون البابوية صاحبة
السيادة الاقطاعية فى البلاد ، فى الوقت الذى يرفض فيه الألمان ذلك
بالنسبة لبلادهم ، وحتى لمناطق طموحهم فى صقلية ، ولعل ماوقع فى
بيزانسون (٣٣) خير دليل على ذلك . وفوق هذا كله وذاك ، لم يكن مقت
الصقليين للـك الأمانى يتولى أمورهم ، أقل من كراهية الألمان لذلك إذا ماحدث
واعلى عرشهم صقلى (٣٤) .

من أجل هذا كله لم يكن غريبا أن يوجد فى صقلية حزب نورمانى
يعارض انتقال العرش الى ملوك أسرة الهوهنشتاوفن ، وأن يقدم هذا
الحزب على اختيار تنكرد Tancred ملكا خلفا لأخيه غير الشقيق
وليم الثانى عقب موته سنة ١١٨٩ ، ضاربا عرض الحائط بحق كوفستانس
فى ميراث عرش أبيها ، وبالتالى حق زوجها هنرى السادس . بل لقد
سعى هذا الحزب الى توسيع دائرة العداء تجاه الملوك الألمان ، فجذب
الى صفه جماعة الولفيين Welfs (Guelfs) فى ايطاليا ، الأعداء
التقليديين لأسرة الهوهنشتاوفن ، وعقد تحالفا مع ريتشارد الأول ملك
انجلترا وهو فى طريقه الى الأراضى المقدسة قائدا لجيوش بلاده فى
الحملة الصليبية الثالثة ، حيث كانت أخته هى أرملة وليم الثانى .

وكان على هنرى السادس أن يواجه هذا التحالف الصقلى الايطالى
الانجليزى ، فقداد جيوشه الى ايطاليا سنة ١١٩١ ، ووضع على رأسه
النتاج الامبراطورى ، غير أن الفشل لحق به فى حملته هذه ، ألا أن القدر
عوضه عن ذلك بأن ساق اليه صيدا ثمينا عندما وقع فى أسر ريتشارد

(٣٣) راجع الحاشية السابقة .

(٣٤) فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى — الجزء الأول . ص ٢٠٧

ملك إنجلترا أثناء عودته من الأراضي المقدسة (٢٤) . أو بتعبير آخر — على حد قول فرانك بارلو F. Barlow — امتلك هنري السادس — في شخص ريتشارد ، مفتاحاً من ذهب سوف يفتح أمامه جميع الأبواب الموصدة (٢٦) . ذلك أن هنري استغل هذه الفرصة بذكاء كبير ، فضمن أن يقف إلى جانبه فيليب أوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا ، العدو اللدود لملك إنجلترا ، وجون الأنجليزي أخو ريتشارد ، اللذان طالبا هنري أن يبقى عدوهم المشترك في أسره دون غفك . وإن كان الملك الألماني قد أطلق سراح خصمه بعد عامين من الأسر لقاء غدية ضخمة قدرها مائتا ألف مارك ، بالإضافة إلى خمسين ألفاً أخرى مقابل أن يحاه من وعده بمساعدته ضد الثورمن (٢٧) . وفي نفس العام حالف الحظ هنري مرة أخرى إذ هبت فتكرو الخورماني ، فتم تتويج هنري الملك الألماني ، وإمبراطور الرومان ، ملكاً على صقلية وأبوليا وكالابريا .

هكذا امتد سلطان ألمانيا على جنوب إيطاليا وصقلية ، لكنه كان سلطاناً مزعراً ، يتهدده العداء النورماني الكامن في الجنوب ، والفوضى العارمة التي توشك أن تعصف بألمانيا ذاتها ، من جراء انشغال ملوكها بطموحاتهم الخاصة في مملكة الصقليين ، والحقد البابوي والكرامية المقيته يحملها الجالس على كرسي القديس بطرس في روما . ثجله هذا « الانتشار » الألماني ، والذي أوقع البابوية بصورة عملية بين فكي « كماشة » ألمانية إذا كان أمراً طبيعياً أن يرفض البابا تتويج فردريك الثاني ابن هنري السادس وكونستانس ، في هياث أبيه ، في الوقت الذي قبل الألمان اختياله ملكاً على ألمانيا .

(٢٥) وكان ريتشارد قد أسر على يد ليوبولد الرابع Leopold IV دوق أوستريا سنة ١١٩٢ الذي سلمه بدوره لسيدة الملك الألماني هنري السادس في عام ١١٩٣ بناء على طلبه . للمزيد من التفاصيل انظر : Bartow, op. cit., pp. 361-364.

Ibid. 164.

(٢٦) انظر

(٢٧) المرجع السابق . الصفحات نفسها .

ولم تلعب الحرب الأهلية أن اندلعت في ألمانيا عقب وفاة هنري السادس عام ١١٩٧ بين الولفيين بزعامة أوتو الرابع دوق برنيسويك ، والهونشتا وفن تهت قيادة فيليب السوابي ، واستمرت ستة عشر عاما كاملة ، تداول فيها الطرفان النصر والهزيمة ، وتدخل فيها البابا اثوننت الثالث بصورة مساهرة ، متقلبا بين الجانبين بما يحقق مصالحه الزمنية في ألمانيا وإيطاليا على حد سواء ، هذا في الوقت الذي حرصت فيه كوستانس على الاحتفاظ بعرش صقلية لابنها فردريك ، غير أن البابوية وقد قلب لها أوتو الرابع ظهر المجن بعد أن توجهت في سنة ١٢٠٩ في أعقاب مقتل فيليب السوابي الهونشتاوفني ، رأت أن مصالحها الزمنية تفرض عليها الوقوف الى جانب الأمراء الكارهين لأوتو الرابع ، والذين أقدموا على اختيار فردريك الثاني ملكا عليهم سنة ١٢١١ .

وقد يبدو هذا الأمر غريبا الى حد كبير ، فالبابوية تبدل قصارى جهدها كي تكف عقبة كداء في سبيل اتمام أي نوع من الترابط بين ألمانيا ومملكة الصقليتين ، والتي آلت الى ملوك ألمانيا الآن . فلذا بها تستند فردريك الثاني ملك صقلية وترفعه على العرش الألماني ليتسع بذلك قدمه الأخرى على الأرض الألمانية ، بعد أن كان قد ثبت الأولى في صقلية . لكن الغلبة سرعان ما تهنفت ، إذا أدركنا أن اثوننت الثالث أراد أن يحتفظ لنفسه فردريك ويتخذ أداة طيعة ضد أوتو الرابع الذي راح يمارس - بعد حصوله على التاج (١٢٠٩) نفس سياسة أعدائه الهونشتاوفن تجاه إيطاليا وصقلية والجبر الروماني . ولا شك دار بخلافه أن فردريك يحسوف يكمل له في نفسه كل التقدير بعد أن أعيد اليه حقا كل ما يبدو بعيد المنال . غير أن الأحداث خيفت فال بابوية .

فبعد نجاح هنري السادس في فرض سيادته على جنوب إيطاليا وصقلية عام ١١٩٤ ، ووراثة ملوك ألمانيا بشكل واقعي لعرش الفورمان ، ورثوا معه أيضا نظامهم الذي السيادة على عالم البحر المتوسط ، وصادف ذلك هوى كبيرا في نفس فردريك الثاني بصفة خاصة ، ولم لا وقد أمضى سني عمره الأولى في سوارغ صقلية ، وأجاد العربية ، ونهل من

الثقافة الإسلامية ، وتأثر بالتراث البيزنطى ولم يتخل عن الطموح
الألمانى وسياسة الهوهنشتاوفن وأتقن عدة لغات ، وتعمق فى بعض من
العلوم ، حتى صار « محير العالم » أو (أعجوبة الدنيا) Stupor
Mundi من هنا كانت محاولاته الالتزام بالتقاليد النورمانية
التي انحرفت بالسياسة الامبراطورية عن دروبها الرئيسية . لقد كان
الاتحاد التام بين المملكة الصقلية والامبراطورية unio regni ad
imperium الذى أراده فردريك ، السبب المباشر فى
انحراف هذه السياسة الامبراطورية عن جادة الصواب (٣٨) .

وعلى هذا النحو ازدادت حدة العداء بين البابوية والامبراطورية ،
وفتح باب الصراع على مصراعيه ، وأيقنت البابوية أن عليها أن تكسب
هذه الجولة الأخيرة ، والا كان فيها نهايتها ، فحشدت أسلحتها ، وسعرت
لهيب نيرانها ، وأقدم البابا جريجورى التاسع فى عام ١٢٤١ على الدعوة
لعقد مجمع كنسى فى روما بهدف عزل فردريك ، فلما حيل بين المؤتمرين
والحضور ، بجهود الملك ، جدد البابا انوسنت الرابع الدعوة ثانية فى
سنة ١٢٤٤ . والتأم عقد المجمع فعلا فى ليون عام ١٢٤٥ وصدر قرار عزل
فردريك الثانى (٣٩) . وشهدت السنوات الخمس الباقية من عمر
الامبراطور عددا من الثورات فى شمال ايطاليا وجنوبها ، وحركات تمرد
فى داخل ألمانيا ذاتها ، وقيام البابوية باختيار وليم أمير هولندا ملكا على
ألمانيا . ورغم أن فردريك حقق بعض الانتصارات فى شمال ايطاليا، ولقى
الأمير الهولندى الهزيمة على يد كونراد ابن فردريك، إلا أن ذلك لم يجد نفعا،
حيث مات الامبراطور فى نهاية سنة ١٢٥٠ (٤٠) وعندها تنفست البابوية
المصعداء ، ورأت فى موته فرصتها السانحة للاجهاز على الامبراطورية ،

38) Barraclough, The origins of modern Germany, p. 197.

(٣٩) راجع نص قرار العزل فى

Tierney, The Middle Ages, vol. I.
Source of Medieval history, p. 272.

40) Thompson & Johnson, op. cit., pp. 426-428.

وافتر ثغورها عن ابتسامة ساحرة ، سرعان ماتحولات الى ضحكة عالية وهى توى مانفرد Manfred الابن غير الشرعى لغرهويك ملكا على عرش صقلية ، وعلى عرش ألمانيا ابنه كونراد الرابع ، الذى لم يلبث أن توفاه الموت فى سنة ١٢٥٤ ليخلفه ابنه الطفل كونرادينو فهذا ملكانت تطمح اليه البابوية ، يعنى تقطيع أوصال الامبراطورية ، وفسخ عرى الارتباط بين ألمانيا وإيطاليا ، وهو ماجاهد فردريك بربروسا وهنرى السادس وفردريك الثانى للحيلولة دون وقوعه .

وإذ أبصرت البابوية بعين السلطان الزمنى الفرصة مواتية لتحقيق نصرها الكامل ، فقد اهتمت ماسنح لها على التو ، وراحت تعرض عرش صقلية على آدموند Edmund ابن هنرى الثالث ملك إنجلترا ، لكن هذه المحاولة لم تفلح حيث تمكن مانفرد من استعادة نفوذه على الجزيرة ، وإن كان الى حين ، حيث لم يجد البابا الفرنسى الأصل ، كلمنت الرابع Clement IV صعوبة فى اقناع شارل دوق أنجو Charles of Anjou أخى لويس التاسع ملك فرنسا ، بقبول العرش الصقلى باعتباره اقطاعا بابويا . ولم يلبث المرشح الفرنسى للعرش الصقلى أن غزا أملاك الهوهنشتاوفن ، وأوقع الهزيمة بمانفرد الذى أسلم الروح فى المعركة التى دارت قرب بنفنتو Benevento فلما استدعى آخر سلالة الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، كونرادينو ، ليواصل مهمة الحفاظ على ميراث أجداده ، وهى مهمة صعبة وثقيلة ، لم يكن أسعد حظا من عمه ، فلقى الهزيمة على يد الجيوش الفرنسية بالقرب من تاجلياكوزو Tagliacozzo عام ١٢٦٨ . وقد سبق المصطفى ، الذى لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره ، الى نابلى حيث أطيح برأسه بموافقة البابا حتى يجعل من القضاء على الهوهنشتاوفن والامبراطورية أمرا لا سبيل الى الشك فيه أو العودة اليه .

وفى تقديرنا أن الظروف السيئة التى كانت تحيط بالبابوية ، جعلتها تغض الطرف تماما أو لنقل بتعبير أكثر دقة ، تنسى كلية مهامها الروحية

ورسالتها الرعوية ، وتضع نصب أعينها شيئاً واحداً وهذا معجداً من
السيادة الزمنية على العالم المسيحي ، وهو شيء كانت قد جعلته مبتغاهما
منذ أسقط قناع التقليد العلماني بمقتضى اتفاقية وورمز سنة ١١٣٣ بين
هنري الخامس وكالكستين الثاني Calixtus II ، وحققت في
ذلك نجاحاً لا بأس به عندها ترعمت عالم المسيحية في الغرب وقادته
لحرب المسلمين في الشرق تحته راية الصليب ، واعتلت سمت نجاحها
عندما أسقط جنود الصليب في الحملة الصليبية الرابعة ، القسطنطينية ،
درع المسيحية في الشرق وحامية الأرثوذكسية في مطلع القرن الثالث
عشر (١٣٠٤) ، إلى الحد الذي دفع البابا انوسنت الثالث إلى الاشارة
في رسائله إلى قادة الحملة بغزوهم للقسطنطينية ، واعتباره فتحاً عظيماً
ونصراً للبابوية نفسها على « امبراطورية منحرفة وكنيسة ضالة » (٤١) .

غير أن رياح النصف الثاني من القرن نفسه ، حملت لها نذير
الكوارث المتتالية لهذا الامتداد الهائل لنفوذها في الشرق المسيحي
والامارات اللاتينية في الشرق الاسلامي ، بل والحركة الصليبية ذاتها،
فقد لقي لويس التاسع الملك الفرنسي ، والقديس ، هزيمة مروعة في
مصر عام ١٢٥٠ ، وتلك كانت ضربة قاصمة للصليبية في أوروبا ، اذ لم
تعد لمثلها ثانية بعد أن تولت إلى الظل الروح الصليبية نفسها . ولم
تفلح جهود لويس في بلاد الشام خلال أربع سنوات قضاهما هناك ، وكان
في حملته على شمال افريقيا سنة ١٢٧٠ ، حتفه (٤٢) . وقبل ذلك بسنوات

(٤١) راجع دكتور امحق عبيد الدولة البيزنطية في عصر باليولوغرس
ج ١٢ - ١٤ .

(٤٢) في عام ١٢٧٠ قاد لويس التاسع حملة صليبية جديدة إلى تونس ،
غير انه توفي على أبواب قرطاج ، وكان موته كارثة بالنسبة للحركة الصليبية ،
في وقت كانت فيه تحضر ويتضح هذا من قصيدة كتبها شاعر فرنسي معاصر
يدعى رتيوف Rutebeuf يقول فيها « أن من الصعوبة أن يخاطر الإنسان
في حرب دينية خارج بلاده إذا كان بوسعه أن يتصل بالاله وهو في وطنه
يعيش في سلام . ويسخر الشاعر في القصيدة من رجال الدين الذين جعلوا
من الحروب الصليبية وسيلة لاقتزاز الآهوال . راجع مذكرات جوانفيل عن
القديس لويس ، ترجمة وتعلق دكتور حسن حبشي ، ص ٣١ - ٣١٣ وكذلك
دكتور جوزيف نسيم بونف : العدوان الصليبي على مصر ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

قلائل ، تنقت البابوية صفتين متتاليتين ، إذ فقدت في عام ١٢٦١ سيادتها على القسطنطينية ، حين تمكن ميخائيل الثامن باليولوجوس من استرداد العاصمة البيزنطية Michael VIII Palaeologus والقضاء على الامبراطورية اللاتينية واقامة أسقف أرثوذكسي ثانية في كنيسة القسطنطينية • ولم يأت مايو علم ١٢٦٨ حتى كان المسلمون بزعامة الظاهر بيبرس ، سلطان مصر المملوكي ، قد استردوا اماره أنطاكية الصليبية ، ولم يبق للغرب اللاتيني في الشرق الا طرابلس وبعض القلاع على ساحل بلاد الشام • ولا ريب أن هذه الأحداث جميعها قد وعتها البابوية جيدا ، فصممت على أن تحقق لنفسها نصرا على الأرض الأوروبية تمحو بها ويلات جراحاتها التي قذفت بها رياح الشرق على أرض الواقع الأوروبي •

هذه الصورة توضح بجلاء ما آل اليه أمر الامبراطورية الألمانية من جراء تورطها في ايطاليا بمشكلاتها العديدة المتشابكة شديدة التعقيد • وإذا كانت السياسة الألمانية في ايطاليا على النحو الذي رأيناه — قد أدت بالنفوذ الألماني في الخارج الى أن يتعرض لهذه الهزات العنيفة والتي انتهت باعدام آخر سلالة الهوهنشتاوفن ، تلك الأسرة التي تمثل انعظمة الاقطاعية في العصور الوسطى ، فكيف يمكن أن يكون عليه الحال في ألمانيا ذاتها من الداخل • وإذا كانت البابوية قد وقفت هذا الموقف العدائي السافر تجاه السياسة الألمانية في ايطاليا وصقلية ، فان ما فعلته داخل ألمانيا كان أشد وأنكى • وكان هذا حتما مقضيا مادامت المصالح بينهما قد تعارضت مفهوما وواقعا •

فقد حمل الأباطرة الألمان على عاتقهم ابتداء بأوتو الأول ، مهمة الإصلاح الكنسي بعد أن تردت البابوية خلال القرون من السابع الى الثلث الأول من الحادى عشر فى هاوية الانحلال الكامل ، غير أن مفهوم الإصلاح كان يختلف عند كل منهما عن الآخر • فالإصلاح فى نظر الأباطرة كان يعنى أن تتطهر الكنيسة من أمراضها الداخلية مثل السيمونية

وزواج رجال الدين ، وأن يعتلى كرسى القديس بطرس فى روما ، بابوات مصلحون ، شريطة أن يكون للامبراطور السلطة الكاملة على شئونها ، والتدخل المباشر فى اختيار رجال الدين وعلى رأسهم البابا ، وهذا واضح تماما فيما تم عليه الاتفاق بين أوتو الأول والبابا يوحنا الثانى عشر عند تتويج أوتو امبراطورا عام ٩٦٢ ، وما أخذه الأخير على الرومان من تعهدات سنة ٩٦٣ فى أعقاب نكوص يوحنا الثانى عشر على عقبه وتحوله الى جانب برنجار اللومباردى عدو الملك الألماني ، والقاضية بعدم الاقدام على اختيار أى أسقف لكنيسة روما الابعوا فقة الامبراطور (٤٣) . ومن هذا المنطق أيضا جرت سياسة أوتو الثالث فى تقليد برونو Bruno منصب الباباوية باسم جريجورى الخامس ، وهو أول بابا المانى يعتلى الكرسى البطرشى ، ومن أشد المتحمسين لحركة الإصلاح الكنسى ، فلما قبض صغيرا ، عين الامبراطور معلمه جربرت Gerbert أسقفا رومانيا باسم سيلفستر الثانى Sylvester II . ومن هذا المنطق أيضا أقدم الامبراطور هنرى الثالث على عزل ثلاثة من البابوات الفاسدين وعين على التوالى خمسة بابوات مصلحين ، ولم ير فى ذلك شيئا سوى اصلاح الكنيسة الكاثوليكية . وان كان من وجهة النظر الامبراطورية (٤٤) .

أما الباباوية فقد كان لها رأى آخر ، فالاصلاح بالنسبة لها يعنى فى المقام الأول كف أيدي العلمانيين ، أيا كان شأنهم أو مراتبهم ، عن التدخل فى تعيين رجال الدين وبالأحرى البابا . واتخذت الخطوات الأولى فى سبيل ذلك عقيب وفاة هنرى الثالث وضعف السلطة الامبراطورية فى ايطاليا ، من جراء غض العمر الذى كان يعاقيه الامبراطور الطفل هنرى الرابع ، اذ أقدم الاكليروس الرومانى على اختيار نقولا الثانى Nicholas II أسقفا لروما ، وكان أهم ماتضمنه قرار الاختيار ،

43) Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 118-119.

44) Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 122-124.

أن تتم عملية رسم البابا في روما على يد كرادلة روما السبعة دون تدخل من الخارج^(٤٥) بل تعدى الأمر ذلك الى تحقيق العدالة والصلاح في المجتمع . والصلاح الذي تعنيه البابوية كما جاء على لسان جريجورى السابع ، الانموذج الحقيقي للسلطة البابوية المطلقة ، هو الطاعة الكاملة للرب ، وهذه تتحقق عن طريق الانقياد التام للبابا ، والخروج عليه يعد - حسب تعبيره - ضربا من الشرك ونوعا من الوثنية^(٤٦) . وأباح جريجورى السابع لنفسه أن يستمد سلطانه من مكانته باعتباره خليفة القديس بطرس ، ونائبه على الأرض ، واستخدم آية الانجيل التى جاءت فى خطاب المسيح لبطرس معتبرا اياه صخرته التى سيبينى عليها كنيسته ، مخولا اياه سلطة الربط والحل على الأرض^(٤٧) ، وراح يباشر

45) The Papal election decree of Nicholas II.

Ullmann, op. cit., pp. 135-138. وللمزيد من التفاصيل انظر .

46) Letter of Gregroy VII to Henry IV.

(٤٧) ورد فى الانجيل أن المسيح سأل تلاميذه يوما « من يقول الناس انى أنا ابن الانسان » فأجابوه بإجابات مختلفة ، الإسمعان قال « أنت هو المسيح ابن الله الحى » فأجابه المسيح « ... أفتبطرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيستى ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات ، فكل ماتريظته على الأرض يكون مربوطا فى السماوات . وكل ماتحلته على الأرض يكون محلولا فى السماوات » . متى ١٦/١٣ - ١٩ .

وقد استخدم جريجورى السابع نص هذه الايات فى قرار العزل الأول الذى أصدره ضد هنرى الرابع والذى كتبه فى صيغة موجهة الى القديس بطرس .

انظرو:

The first deposition and excommunication of Henry IV by Gregory VII, in (Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 151-2).

وانظر نص القرار أيضا فى:

Tierney, The crisis of church and state, pp. 61-61.

The Middle Ages, Vol. I : Sources of Medieval History pp. 146-147.

Henderson, Select historical documents of the Middle Ages, pp. 376-377. وكذلك

Lyon, Sources in Western Civilization, The high Middle Ages, 1000-1300, pp. 92-93. وأيضا

سلطات زمنية واسعة ، زادت النار ضراما فى آتون الصراع حول مشكلة التقليد العلمانى • وبمقتضى ذلك كتب الى هنرى الرابع يطلب اليه عزل خمسة من مستشاريه السياسيين كان قد صدر بشأنهم قرار عن مجمع روما سنة ١٠٧٥ باعتبارهم من السيمونيين^(٤٨) ولم ير جريجورى فى ذلك غضاضة أو خروجاً على حدود سلطانه • بل ان الادلال الذى لقيه هنرى الرابع على يد هذا البابا فى كانوسا Canossa ، عدم المتعصبون للاراء الجريجورية ، أو الحزب البابوى ، نوعا من الندامة أو التوبة أقدم عليها الملك الألمانى ، وان كانت فى صدر هذا الأخير شيئا مغائرا تماما •

وانه لمن سخرية الاقدار حقا أن يكون أكثر الناس خسرانا من برنامج الإصلاح الكنسى هذا ، هم الأباطرة الألمان أنفسهم ، أولئك الذين جعلوا ، بجهود أوتو الأول وسميه الثالث وهنرى الثالث ، نجاح هذا الإصلاح حقيقة واقعة • لكنهم كانوا كمن يحفرون قبورهم بأيديهم ، فقد تلاقت مصالح البابوية مع الأمراء الألمان ، فى ظل النظام الاقطاعى بسماته المميزة المتمثلة فى انحلال السلطة المركزية ، على اضعاف الحكومة الألمانية ، وجعلها مجرد صورة شاحبة ، باهتة ألوانها ، بعد أن فرضت مشكلة التقليد العلمانى نفسها بقوة كقاعدة رئيسية فى برنامج الإصلاح الكنسى الهلديبراندى أو الجريجورى •

وكان تلقى أوتو الأول التاج الامبراطورى من يد البابا ، يعنى بمفهومه التقليدى أن يقوم كل ملك ألمانى بعد تنصيبه فى ألمانيا بزيارة الحج الى روما لتلقى التاج هناك من البابوية ، وأصبح هذا أمرا لا مندوحة عنه بعد أن استقرت فكرة الامبراطورية فى أذهان وخطط الملوك الألمان منذ القرن الحادى عشر بصفة أساسية •

48) Leter of Gregory VII to Henry IV 1075.

ويعبر هنرى بيرين عن هذا فى عبارات بليغة بقوله « لم تكن الامبراطورية بالنسبة لألمانيا قدرا محتوما ومهلكا فقط ، لأنها فرضت على ملوكها سياسة عالمية ، واضطرتهم الى التضحية بالدولة فى سبيل الكنيسة ، وأجبرتهم فى النهاية على أن يتركوا الميدان الى الظل ، بل لأنه كانت لها نتائج بعيدة المدى ، تمثلت فى السماح للبابوية بالتدخل المباشر فى شئون ألمانيا الداخلية ، اذ أن الملك الألماني ، أو بتعبير أدق ، ملك الرومان ، بأعترافه الامبراطور المعين ، وحيث أن روما كانت قادرة على هذا الأمر وبصورة مباشرة وواضحة ، فقد أصبحت تدعى أن موافقتها تعد أمرا أساسيا لاختيار الامبراطور الجديد » (٤٩) . لقد كانت البابوية ، وعلى عهد انوسنت الثالث بصفة خاصة توافق على أحقية الأمراء الألمان فى اختيار ملكهم ، لكن جعل هذا الملك امبراطورا كان من سلطة البابا باعتباره نائب المسيح على الأرض ، ذلك أن الكرسي الرسولى فى روما هو الذى نقل الامبراطورية من القسطنطينية الى الغرب زمن شارلمان ، وأعاد احيائها من جديد بتتويج أوتو ، ومن هنا غدا الامبراطور فى نظر البابوية موظفا ، خلقه البابا ليكون عضده وساعده . فهو ليس الا مرآة تعكس عالمية الكنيسة الرومانية ، أو بتعبير آخر هو القمر الذى يعكس ضوء الشمس . نعى الكنيسة الرومانية (٥٠) لذا لانكاد نجد ملوك ألمانيا واحدا على امتداد ثلاثة قرون كاملة ما بين عامى ٩٦٢ - ١٢٥٠ الا وقد جاء الى روما يسعى للحصول على اللقب الامبراطورى ، ولم يستثن من ذلك الا كوانرد الثالث (١١٣٩ - ١١٥٢) ولم يكن تمردا ولا هجرانا ، ولكن لأن ظروفه الداخلية لم تسمح له بهذه الزيارة ، وان كان كونراد أداة طيعة فى يد البابوية ، اذ سيرته برفقة قريينه ملك فرنسا ، لويس السابع ، لقيادة جيشه فيما عرف بالحملة الصليبية الثانية ، التى لم تكن تحت أسوار دمشق الا الخسران .

(٤٩) انظر : Pirenne, A history of Europe, p. 319.

(٥٠) انظر : Ullmann, op. cit., p. 211.

وكان هذا الأمر — نعنى عملية الحج الملكى الألماني الى روما من أجل اللقب الامبراطورى يستتبع بالتالى وجود قوة عسكرية كبيرة يجردها الملوك الألمان أثناء رحلاتهم هذه ، مما ترك أثره البالغ على المانيا نفسها — كما سنرى بعد قليل • وذلك لارهاب البابوية فى المقام الأول ، ولمواجهة خصوم الامبراطورية ممثلين فى المدن اللومباردية فى الشمال الايطالى ، والتى لقيت الجيوش الألمانية على يديها الهزيمة فى أكثر من موقع ، وكانت من الأسباب الرئيسية فى تحطيم النفوذ الألماني فى ايطاليا • والنبلاء الرومان التأثيرين دوما ضد امتداد السلطان الألماني الى ايطاليا • والغضب البيزنطى البادى فى محاولات الأباطرة المقدونيين خلال القرن العاشر استعادة بعض ماكان لهم من سيادة آذنت شمسها بالمغيب ، والنورمان انطامحين والطامعين فى التهام ماتبقى من الأملاك البيزنطية والأعداء الشرسين للملوك الألمان • وإزاء هذه الفوضى الضاربة أطنابها فى ايطاليا ، فان الوجود العسكرى الألماني بها ، لم يحقق الاستقرار السياسى الذى كان ينشده أباطرة ألمانيا ، ولم يتجاوز سلطان الألمان فى ايطاليا على حد تعبير برايس حدود الزمان الذى كان يبقاه الجيش الألماني هناك^(١٥١) •

فهذا هو أوتو الأول نفسه ، رغم دوافعه الألمانية للتدخل فى ايطاليا ، فقد جاء اليها فى خمس حملات عسكرية لتدعيم سلطانه فى روما ، وابنه أونو الثانى حكم عشر سنوات (٩٧٣ — ٩٨٣) أمضى الثلاث الأخيرة منها فى ايطاليا فى جهود عسكرية فاشلة • وأوتو الثالث قضى فترة حكمه كلها (٩٨٣ — ١٠٠٣) فى ايطاليا ، ولم تره المانيا الا مجمولا على أيدي الرجال ميتا ليدفن بأرضها • أما هنرى الثانى آخر الخط السكسونى ، فقد حج الى روما عام ١٠١٤ ليتوج امبراطورا وقصدها كونراد الثانى سنة ١٠٢٧ ، وقدم عليها هنرى الثالث مرتين مابين عامى ١٠٤٦ — ١٠٥٧ ، وعسكر هنرى الرابع بجيوشه محاصرا روما ثلاث سنوات ١٠٨١ — ١٠٨٤ ، بينما جاءها هنرى الخامس مرتين ، الأولى خلال عامى ١١١٠ — ١١١١ ،

والثانية في سنتي ١١١٦ - ١١١٧ • وحج إليها لوثر في عامي ١١٣٣ ،
 ١١٣٦ • أما فردريك بربروسا فقد قاد جيوشه الى هناك في ست حملات
 عسكرية لم تكن كلها لصالحه ، بل لم يكن لأولها من ضرورة على الإطلاق
 الا اذا أدخلنا في اعتبارنا الفاجية التقليدية لهذه الرحلات كما أسلفنا ،
 ذلك أنه من الصعب أن نجد بالفعل سببا مقنعا لقيام فردريك بحملته
 الأولى الى ايطاليا ١١٥٣ / ١١٥٥ فقد كان سلطانه على الكنيسة في ألمانيا
 يكاد يكون تاما ، على حين كان البابا غارقا حتى كذاته في مشاكله الخاصة
 مع أرنولد البريشي Arnold of Brescia ، بل وتجلت قوة فردريك
 في تعيينه أسقف زيتز Zeitz رئيسا لأساقفة مجدبرج
 Magdburg وحصوله على موافقة البابا على هذه الممارسة « غير
 الشرعية » للسلطة الملكية ، فمهما كان حق الملوك في اختيار رجال
 اللاكروس ، فان البابا وحده الحق في نقل أسقف من كرسى كنسى الى
 آخر • ومن ثم فلا تبرير لهذه الحملة الا رحلة الحج التقليدية ، أو أن
 يكون فردريك غير راض بسلطانه في ألمانيا ، ازاء قوة أعدائه الولفيين ،
 ومن ثم كان يحلم بكسب مجد تحمله اليه حملة عسكرية موفقة • بالإضافة
 انى أنه كان غاضبا من بقاء حركة مشروعاته في ألمانيا ، ويطمح في أن
 تحصل اليه ثروات المدن اللومباردية انطلاقا أسرع ، فلا بد - في نظره -
 أن مناطق السيادة الملكية عبر الألب سوف تكون أكثر غنى وأوفر أمنا (٥٢) •

بل ان فردريك بربروسا لقي في ايطاليا سنة ١١٧٧ اذلالا شبيها
 الى حد ما بالاذلال الذي لقيه هنرى الرابع قبل ذلك بمائة عام في
 كانوسا • وبينما أمضى ابنه هنرى السادس نصف عهده القصير الذي لم
 يتجاوز سبع سنوات (١١٩٠ - ١١٩٧) في ايطاليا ، ومات في بالرمو ،
 وهب فردريك الثانى جل عهده وحياته كلها من أجل مملكته الصقلية •

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد ، بل ان بعض الأباطرة الألمان ، في
 محاولة لاسترضاء البابوية شاركوا في الحملات الصليبية ، فاضافوا الى

52) Strayer & Munro, op. cit., p. 219.

Ullmann, op. cit., pp. 178-188.

وايضا :

غيابهم عن ألمانيا بعدا جديدا ، وكان من بين هؤلاء كونراد الثالث ، وفردريك بربروسا وسميه الثانى ، ورغم أن ثالثهم هذا قد حقق نجاحا لم يسبقه اليه الا جنود الصليب فى الحملة الأولى ، الا أن البابوية — فى جملة عداؤها معه — جزته عن ذلك جزاء سفار ، وأوقعت ضده للمرة الثانية قرار الحرمان الكنسى ثم الغزل من بعد .

هذا الغياب المتوالى والمتقطع من جانب الأباطرة عن ألمانيا والذي امتد حوالى خمسة وتسعين سنة خلال مائتين وثمان وثمانين عاما (٩٦٢ — ١٢٥٠) ، وتمثلت خطورته بشكل سافر فى تغيب أباطرة مثل أوتو الثالث وفردريك الثانى بصفة مستمرة عن دولتهم ، والاستنزاف العسكرى المستمر لموارد ألمانيا ، والانهاك البشرى لزهرات شباب الألمان . كان لابد أن يترك بصماته الواضحة على سلطان الملوك الألمان أنفسهم فى داخل دولتهم ، فى عصر سادته النظام الاقطاعى ، وسيطرت على مقاليد الأمور فيه أيدي الأمراء ، و تهاوت الى الحضيض السلطة المركزية للملوك . ولما كانت ألمانيا بطبيعة تكوينها القبلى منذ البداية ، وجغرافيتها المتناثرة ، وعدم دخولها ضمن دائرة الامبراطورية الرومانية ، فقد افترقت الحكومة المركزية ولم تعرفها الا قهرا على زمن شارلمان ، فقد ظل الألمانى على امتداد ألف سنة يفاخر بأنه سكسونى أو بافارى أو فرنكونى أكثر من كونه ألمانيا . ومن أجل هذا بقيت الملكية الألمانية انتخابية حتى وان تمثلت فيها الوراثة فى كثير من الأحيان^(٥٣) . وظل الامراء الألمان يتحينون أية فرصة تسفح لهم ليفترضوها وليحققوا من ورائها ذواتهم ومطامحهم الاقطاعية التى كانت تتركز بصفة أساسية فى مزيد من الامتيازات واتساع فى الممتلكات .

ووجد الأمراء الألمان فى البابوية خير سند ومعين لتحقيق أغراضهم ،

(٥٣) للمزيد من التفاصيل عن هذه الناحية ، أنظر للباحث : الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب فى العصور الوسطى ، بحث منشور فى ندوة التاريخ الاسلامى والوسطى — العدد لثانى — ١٩٨٣ .

فقد كانت بدورها تسعى حثيثا لتحطيم قوة الامبراطورية الألمانية بعدما تبين لها أنها تشكل خطرا جسيما على سلطاتها ، خاصة في المرحلة الثانية من الصراع بين البابوية والامبراطورية في أعقاب توقيع اتفاقية وورمز ١١٢٢ • وفي الوقت الذي كانت الأولى في عهدها الاصلاحى قادرة على التوصل الى تفاهم مع ملوك انجلترا وفرنسا ، فان سياسة الملوك الألمان كانت لاتروق لناظريها ، وذلك لأنها كانت بادرة يمكن أن تهدد سيادة روما على الكنائس الأخرى في أوروبا ، ومن ثم فان التقارب الذى كان قائما بين التاج والكنيسة الألمانية زمن الأسرة السكسونية ، والسيدة التى تحققت للملكية على الاكليروس الألمانى على عهد الفرנקونيين السالبيين خاصة هنرى الثالث ، كان يعد شيئا لايتفق ومصلح البابوية^(٥٤) وفى مواجهة هذه التحديات كان لزاما على الملوك الألمان أن يتبعوا سياسات متباينة بهدف الابقاء على ولاء الأمراء العلمانيين والاكليروسيين على السواء لسلطانهم ، ورغم اختلاف هذه السياسات الا أنها أودت فى النهاية بموارد التاج وبالتالى هيئته ومكانته •

فقد أقدم أوتو الأول على بذل المزيد من الهبات والامتيازات لرجال الاكليروس الألمان ، حتى يصطنعهم لنفسه فى مواجهة الأمراء العلمانيين ، بعد أن أخفقت سياسته فى استخدام أقاربه وأصهاره حكاما على المقاطعات • ورغم أن هذه السياسة قد حققت نجاحا فى حينها الا أنها أضحت مشكلة عانت منها ألمانيا من بعد ، اذ ساعدت على خلق طائفة جديدة من الاقطاعيين هم أمراء الاكليروس • وكان على هنرى الثانى (١٠٠٢ — ١٠٢٤) أن يبذل هو الآخر جهودا كبيرة لمعالجة الأمور المتردية التى هوت اليها المانيا بعد غياب أوتو الثانى وابنه وسنميه الثالث فى ايطاليا سنوات طويلة تقترب من ربع القرن • حتى اذا هات عاد الأمراء يمارسون هوايتهم المفضلة فى اختيار الملك الذى كان يعد

54) Barraclough, *Origins of modern Germany*, p. 113.

بحق وفقط « الأول بين أقرانه » كما أسلفنا ، فرفعوا على العرش كونراد الثاني (١٠٢٤ - ١٠٣٩) الذي كان عليه لزاما أن يوقف استنزاف أراضي التاج الذي درج عليه الأمراء العلمانيون والاكليروسيون سواء • لكنه جاء شيئا نكرا عندما عمد الى خلق طبقة جديدة من صغار النبلاء اصطفاها الى جواره ليتصدى بها للنفوذ المتزايد لكبار الأمراء ، وأولئك يمثلون محدثي النعمة ممن لا أصول لهم ، وليست لهم جذور نبيلة ، فاضحوا على المجتمع الألماني من بعد وبالا •

وشهدت السنوات التسع (١٠٥٦ - ١٠٦٥) التي قضاها هنري الرابع يعاني غض الغمر وسن القصور ، سعى كل الفئات على اختلاف انتماءاتها بين الكنيسة والدولة ، لمحاولة تقوية نفوذها وتدعيم مركزها استعدادا لجولات آتية وجولات ، ذلك أن النبالة الألمانية علمانية كانت أم كنسية ، تجاسرت على أن تضع يدها على مساحات شاسعة من الأراضي الملكية مدعية حق السيادة عليها • بل بلغ بهم الأمر الى حد اختطاف هنري الرابع نفسه من بين أحضان أمه والوصاية عليه الملكة آجني Agnes لينشأ تحت رعايتهم ، وراحوا يقتسمون فيما بينهم المصدر الرئيسي لدخل التاج ، نعتى الأديرة الملكية • ولم يكن هؤلاء المختطفون الا الداهية أنو Anno رئيس أساقفة كولوني ، وادالبرت Adalbert رئيس أساقفة همبرج - بريمن Hamburg-Bremen وبات على هذا النحو واضحا أن الوصاية على الملك قد أمست نهبا بين أساقفة متعطشين ونبالة نهمة (٥٤) وحينما أصبح هنري الرابع قادرا على التخلص من هذه الوصاية ، كان عليه أن يدخل فى صراع سافر مع هؤلاء وأولئك لاسترداد كل الأملاك والامتيازات التي اغتصبوها أثناء فترة الوصاية عليه • ولم يغفر له الأمراء هذا ، ولا صفحت عنه الكنيسة •

55) Thompson & Johnson, op. cit., p. 374.

فتحت ستار حل مشكلة التقليد العلماني أصدر البابا جريجوري السابع قراره الشهير بحرمان هنري الرابع وعزله
«a mathematis vinculo alligatus et a regia dignitate depositus»
وأعلن أن هنري الرابع لم يعد من حقه أن يعتلي العرش
iustitio autem regnare prohibet وتم تحرير رعيته من الخضوع له
أو الالتزام بأي واجبات أو تعهدات تجاهه (٥٦)
«Omnis populus quondam sibi subjectus a vinculo iuramenti eidem promissi sit absolutus».

وكان هذا يعني في حد ذاته تحريضا لرعاياه للثورة ضده ، فاندلعت الثورات فعلا في مناطق متعددة من ألمانيا خاصة جنوبها وسكسونيا . وأذلت الامبراطورية في شخص هنري عند كانوسا ، وذهبت الحادثة في التاريخ مثالا (٥٧) ومع أن الأحوال التي أمست عليها ألمانيا عام ١٠٧٥ عندما بدأ الصراع بين هنري الرابع وجريجوري السابع ، كانت من العوامل المشجعة للبابا على تحديو السافر للملك الألماني ، حيث كانت تختلف اختلافا تاما عما تركها عليه هنري الثالث لحظة وفاته ، إذ راحت تمسير الملكية الألمانية الى التفكك ، وظهرت قوى جديدة كانت في الحقيقة مجرد عوامل اجتماعية أكثر منها سياسية ، ولعل ذلك يعود الى سياسة كونراد الثاني في اصطفاء عناصر غير معروفة ، بالإضافة الى ازدياد العداء من جانب الارستقراطية العلمانية ، والمعارضة الكاملة من جانب الاكليروس تجاه فكرة الثيوقراطية التي طبقها هنري الثالث بعزل وتعيين البابوات ، نقول انه رغم ذلك ، فقد كان تدخل جريجوري في ألمانيا ، نقطة تحول خطيرة ليس فقط على عهد هنري الرابع ، بل على امتداد التاريخ الألماني ، إذ دمر هذا التدخل كل الخطط التي جاهد

56) Joachimsen, The investiture contest and the German constitutions, p. 117.

(٥٧) الدلالة الواضحة لهذه الحادثة هي خضوع الدولة الكنيسة . وقد وعى المستشار الألماني الأشهر في القرن التاسع عشر ، بسمارك ، هذا المفهوم وهو يصارع الكنيسة الكاثوليكية عندما أطلق عبارته الشهيرة « لن نذهب الى كانوسا » .

هنرى الرابع من قبل بكل قواه فى سبيل تقوية وتدعيم الملكية ، وغير تغييرا كاملا أشكال الحكومة والتركيب الاجتماعى لألمانيا • ولا شك أن طبيعة التطور الألمانى مابين عامى ٩١١ — ١٠٧٥ ، مهما كانت الصعوبات والمعاناة ، كانت شيئا رائعا • لقد سلكت ألمانيا نفس السبيل الذى أقدم على اتباعه ملوك انجلترا النورمان بعد خمسين سنة من الآن ، وكان من الصعب على ملوك أسرة كابيه فى فرنسا أن يصلوا اليه قبل أن نصف الثانى من القرن الثانى عشر ، غير أن هذا الصرح تم تحطيمه نتيجة الصراع مع الكنيسة ، وكلنت رسالة جريجورى السابع فى الثامن من ديسمبر ١٠٧٥ ^(٥٨) تفجيرا لثورة غيرت تماما طبيعة التطور السياسى الألمانى ، وفتحت صفحة جديدة فى التاريخ الألمانى بل فى التاريخ الأوروبى ^(٥٩) •

فقد وجدت النبالة الاقطاعية فى ألمانيا فرصتها التى تبحث عنها فى قرار العزل الذى صدر ضد هنرى ، وادعت عدم التزامه بقرارات مؤتمر تريبور Tribur ^(٦٠) ومارسوا رياضتهم المفضلة فولوا عليهم ملكا بديلا هو رودلف السوابى Rudolf of Suabia رغم أن هنرى عاد من رحلته المهينة الى كانوسا يحمل قرار العفو من البابا • وشهدت ألمانيا حربا أهلية استمرت ثلاث سنوات سويا (١٠٧٧ — ١٠٨٠) وأدى تباطؤ جريجورى السابع فى تبيان موقفه الى ازدياد أوار

58) Letter of Gregory VII to Henry IV 1075.

59) Barracklough, op. cit. p. 97.

(٦٠) عقد هذا المؤتمر فى مدينة تريبور فى اكتوبر ١٠٧٦ وضم أمراء ألمانيا الساكسونيين على هنرى سياسته ومحاولاته تدعيم السلطة الملكية ، وأساقفتها المرتعشين خوفا من بطش جريجورى ، وخلص المؤتمر طاعة هنرى ، وقرروا وجوب حصوله على غفران البابا خلال خمسة شهور عليه أن يعتكفها فى أحد الأديرة • والتزم هنرى بذلك فى أول الأمر ، ثم انسحل تاركا الدير متجها الى ايطاليا للقاء البابا ، بعد أن علم أن الأمراء دعوا البابا للحضور الى ألمانيا • وقد التقى هنرى بجريجورى فى كانوسا حيث جرت حادثة الاذلال الشهيرة •

هذا الصراع ، حتي اذ قتل رودلف اختاروا آخر خلفا له .. هيرمان
Herman الذي لم يكن أكثر من ظل شاحب لم يقيم له أحد وزنا
على الاطلاق .

واستمرت النبالة الألمانية أفعالها ، فدفعوا كونراد ابن هنري
الرابع الى أن يرفع في وجه أبيه راية العصيان ، ونادوا به ملكا عام
١٠٩٣ ، تشد البابوية من أزرهم بيد أوربان الثاني . ولئن كانت هذه
المحاولة قد باءت بالفشل ، فان غيرها قد نجحت بعد أن بلغ هنري الرابع
من العمر أرذله ، اذ رفع الأمراء هنري الابن ملكا عام ١١٠٤ ، والذي
عرف بهنري الخامس ، ليتولى العرش في حياة أبيه بعون البابا باسكال
الثاني .

لا ريب أن هذه الأحداث ومثيلاتها ، حملت الملكية الألمانية وهنا
على وهن ، راح يترك بصماته واضحة على البناء السياسي لألمانيا في
العصور الوسطى ، وازدادت حدته بوفاة هنري الخامس سنة
١١٢٥ ، اذ انفجر الصراع سافرا بين حزب الولفيين القوي الذي
يتزعمه هنري المتكبر دوق سكسونيا ، والذي لم يكن ابنه
ووريثه هنري الأسد أقل منه صلفا وعنادا ، وبين أسرة
الهوهنشتاوفن . وهو الصراع الذي أودى بقوة ألمانيا السياسية الى حد
كبير ، رأى فيه أحد المعاصرين ، أوتو أسقف فريزيا ، الراهب
السيستريشيانى Cistercian والأخ غير الشقيق لكونراد
الثالث ، صهورة قليلة يستقبل ألمانيا ، سجلها في كتابه «تاريخ المدينتين»
بقوله « انه يشعر Historia de duabus civitatibus

أن المملكة الألمانية كانت تسير الى زوال ، وأن نهاية العالم قد دنت وليس
هناك بارقة أمل الا في المملكة السماوية التي هي لا ريب آتية » (٦١) .
وتكان من نتيجة هذا الصراع ابعاد الوريث الشرعي فردريك الهوهنشتاوفن
باعتباره ابن أخ هنري الخامس ، واختيار شخصية مغمورة ، أداة طيعة

Heer, The Medieval history, pp. 283-284.
Strayer & Munro, op. cit., p. 218.

(٦١) انظر :
واليفضا :

فى يد الأمراء والبابوية ، لوثر ، ليكون ملكا على ألمانيا • وتجلى مدى ضعف الملكية الألمانية لـبان عهده ، فى المرسوم الذى أصدره البابا انوسنت الثانى عام ١١٣٣ ، بمنحه أملاك الكونتيسة ماتيلدا Matilda أميرة تسكانيا ، إقطاعا من البابوية على أن يدفع عنها جزية سنوية (٦٢) • رغم أن ارث ماتيلدا كان فى قبضة ألمانيا واقعا منذ ضمها إليه هنرى الخامس فى أعقاب وفاة الكونتيسة •

وليس أدل على ازدياد نفوذ الإقطاع فى ألمانيا ، واتساع سلطان الأمراء من رفض هنرى الأسد زعيم البيت الـولفى الآن ، ودوق سكسونيا ، الانصياع لأوامر سيده فردريك برباروسا ، باعتباره فصلا إقطاعيا له ، عندما طلب إليه الاشتراك فى حملته الى إيطاليا عام ١١٧٦ ، مما كان له أثره الكبير فى هزيمة الملك الألماني هزيمة ساحقة فى موقعة لينانو Legnano على يد مدن العصبة اللومباردية ، ونزوله على ارادة البابوية • هذا الموقف من جانب هنرى الأسد كان نتيجة منطقية للضعف الذى انحطت إليه الملكية الألمانية من جراء الإغراق المستمر لفردريك الأول فى مشكلات إيطاليا ، حتى أن هنرى أقدم قبل ذلك عام ١١٦٤ على استقبال سفراء الامبراطور البيزنطى مانويل الذى كان يؤيد البندقية وعصبة فيرونا ضد الامبراطور الألماني ، وثنى ذلك فى سنة ١١٦٨ بالزواج من ماتيلدا ابنة هنرى الثانى ملك إنجلترا ، ووصل صلاته بهذه المصاهرة بالتاج الانجليزى وتخطاه الى الدانمرك • وعندما عرج على القسطنطينية فى سنة ١١٧٢ وهو فى طريقه الى الأماكن المقدسة ، نـسرت الشائعات وعلت بأنه يتآمر مع مانويل البيزنطى ضد فردريك الهوهنشتاوفن الألماني (٦٣) وقد كشف ذلك كله عن أن هذا

62) Tout, op. cit., p. 229.

63) Stephenson, Mediaeval history, p. 402.

Scott, Medieval Europe, p. 253.

Barracough, op. cit., p. 187.

وايضا :

وايضا :

الفصل الاقطاعى ينتهج سياسة خارجية مستقلة ، ويدبر أمور دوقيته كما لو كان ملكا متوجا .

وكان لابد للملكية الألمانية الجريئة أن تصفى حساباتها مع هذا الفصل المتمرّد ، الذى ازداد تكبرا بعودة فردريك خاسرا من إيطاليا على هذا النحو . وتمثل ذلك فى رفضه المثل بين يدي أقرانه حسبما تقتضى التقاليد الاقطاعية عندما دعى لمحاكمته عام ١١٧٩ على ما اقترفت يده . عندها استجمع فردريك قواه ، واستحث صغار النبلاء لتأييده ، ووعدهم بأراضى وممتلكات هنرى الأسد إذا ما عاونوه فى تحطيم قوة خصمه الولفى هذا . فلما تحقق لهما أراد سنة ١١٨٠ كان عليه أن يغى بما عاهد عليه الأمراء .

ولا شك أن هزيمة هنرى الأسد واستسلامه ونفيه ، كانت سببا مباشرا فى تغيير الخريطة الألمانية تغييرا جغريا خاصة فى الشمال ، فقد اختفت الدوقية القديمة ، سكسونيا ، وظهرت بدلا منها مجتمعات صغيرة ، وأصبحت وستفاليا دوقية مستقلة ، واتسعت سلطات رجال الاكايوس على مناطق فسيحة خاصة رئيس أساقفة بريمن ومجدبرج ، وعادت الاقطاعية التى كان هنرى الأسد قد ضمها لسلطانه ، الى الأساقفة^(٦٤) . وهكذا اختفت الدوقيت القبلية القديمة لتحل محلها وحدات صغيرة ، وازدادت بالطبع عدد الدوقيت ، وباستثناء سوابيا ، فلم تعد احدى هذه الدوقيت تقارن بسابقتها فى المساحة أو الأهمية . ولم يعد لقب الدوق يدل على نفس الأهمية التى كانت له من قبل ، وظهرت قوة أخرى من طبقة أقل نبالة لكنها لها نفس السلطان مثل حكام ثورنجا وبراندنبرج^(٦٥) وكان توزيع السلطة على هذا العدد الكبير من الأمراء « غير النبلاء » بدلا من العدد القليل من النبلاء الأصليين ، يعنى فى الوقت ذاته تخلص الملكية الألمانية من التهديد الخطير الذى كان يتهددها ،

64) Z.N. Brooke, A history of Europe, p. 503.

65) Mitteis, Feudalism and German Constitution, p. 259.

ولو كان فردريك برباروسا على نفس قدر تفكير معاصريه ، روجر الصقلي وهنرى الثانى ملك انجلترا ، لكان من الممكن أن ينتهز هذه الفرصة لتدعيم سلطانه وخلق نظام ادارى مركزى متميز ، يثبت به دعائم الملكية .

ومن هنا يمكن القول مع « كانتور » ان محاكمة هنرى الأسد تمثل اللحظة الحاسمة فى تاريخ الاقطاع الألماني ، ذلك أن فشل الامبراطور فى ضم أراضي أعدائه الولفيين ، كان يعنى أنه لا يستطيع أن يستغل القانون الاقطاعى فى زيادة سلطانه ، كما كان عليه الحال فى انجلترا على مدى أكثر من قرن من الزمان ، وكما حدث بنجاح بعد ذلك فى فرنسا⁽⁶⁶⁾ لكن فردريك لم يكن رجلا سياسيا ، بل كان تقليديا فى كل تصرفاته . ولما كان هدفه الامبراطورى فى ايطاليا يسيطر على سياسته ، فان ركيزته الأساسية للنجاح فى ذلك كانت الاعتماد على وضعه فى ألمانيا . ولم يستطع فردريك أن يمد بصره خلف القانون والتقاليد الاقطاعية . ومن ثم فانه نتيجة للحروب الأهلية المستمرة فى ألمانيا ، حتى قبل عهد فردريك برباروسا ، راح الملوك يزدادون اعتمادا على « حسن النوايا » من جانب النبلاء⁽⁶⁷⁾ ولذا كان عليهم باستمرار أن يقدموا تنازلات متزايدة لهؤلاء الأمراء لاكتساب تعاونهم وتأييدهم ، خاصة التأييد العسكرى . وكان هذا يعنى اعترافا متزايدا بطموحاتهم الخاصة وبحقوقهم للسيادية فى مناطق سيادتهم ، بما فيها سلطاتهم على النبالة الدنيا ، وحقهم فى الوراثة . ومن ثم أصبح من السهل انتقال لقب الدوق أو الكونت من الأب الى ابنه وكذا الأراضي . وأمسست فكرة إقامة دولة لها كيائها السياسى ، خاصة الالتزام العسكرى تجاه الملك ، ثمرا عثا . ولعبت المحلية الاقليمية التى ظهرت بعد هزيمة هنرى الأسد دورا كبيرا فى الابتعاد بألمانيا عن قيام دولة موحدة . ولقد كانت أهم وأخطر هذه الأمور — على حد تعبير باراكلاف — أن ألمانيا راحت تسير بخطى ثابتة

66) Cantor, Mediaval Europe, p. 434.

67) Z.N. Brooke, op. cit. pp. 505-506.

نحو تأصيل وترسيخ النظام الاقطاعي ، وكان هذا شيئا فرغت منه فرنسا في القرن التاسع ، فراح القلاع تقام في كل مكان ، وساعدت الحروب الأهلية على تعميق الجذور الاقطاعية ، ويقدر ما حققه الأمراء من مكاسب ، بقدر ما خرج التاج في النهاية خاسرا (٦٨) .

وهناك صورة واضحة تعطينا دليلا على ما أسلفنا ، ذلك أن وفاة هنري السادس عام ١١٩٧ بعد السنوات التي أمضاها بعيدا عن ألمانيا ، وموته غريبا في بالرمو ، لم يكن الا إشارة البدء للحزبين المتصارعين في ألمانيا للاقتتال . وطوال أربعة عشر عاما كاملة (١١٩٨ - ١٢١٢) اصطلت ألمانيا بنيران حرب أهلية طرفاها فيليب السوابي سليل أسرة الهوهنشتاوفن ، الوريث الشرعي باعتباره أخ هنري السادس ، اذ كان فردريك ابن هنري من كونستانس مايزال صبيا قاصرا ، وأوتو «الرابع» دوق برونسويك زعيم الولفيين ابن هنري الأسد . ودون أن نخوض في تفاصيل هذا الصراع نقول انه جر الى ساحته النفوذ الأجنبي للتدخل في الشؤون الداخلية لألمانيا (٦٩) اذ وقفت إنجلترا الى جانب حلفائها الولفيين بينما أيدت فرنسا بحكم عدائها للإنجليز ، حقوق فيليب السوابي الهوهنشتاوفني ، والذي اعتبر نفسه - رغم ضعف شخصيته ونفوذه الواضحين ، سليل القياصرة الرومان ، وخلع على نفسه لقب فيليب الثاني بعد فيليب الأول العربي الذي حكم الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي (٣٤٤ - ٣٤٩) ، ولما كانت البابوية قد وضعت في اعتبارها ضرورة الاجهاز على الهوهنشتاوفن ، فقد راحت تتدخل بكل ثقلها في هذه الحرب ، أو بتعبير أدق على حد قول المؤرخ بيرين ، ان هذه الحرب جرت كما تنتهي البابوية (٧٠) ، فقد أخذت تتقل تأييدها من جانب الى آخر على عهد رجلها الأشهر انوسنت الثالث Innocent III

68) Barraclough, op. cit., pp. 136. 139, 141-147.

(٦٩) للزيد من التفاصيل عن الحرب الأهلية هذه راجع

C.M.H. Vol. VI, pp. 44-79.

Ullmann, op. cit. pp. 206-212.

وأيضا :

70) Pirenne, op. cit., p. 285.

الذى أعلن صراحة حقه ، باعتباره راعى الكرسي البطرسي ، فى اختيار المرشح الجديد لعرش ألمانيا « مادامت الامبراطورية تستمد أصولها وسلطتها من البابوية » أما أصولها فلأن الامبراطور اعتلى عرشه ، على يد البابا الذى توجه وسلمه مقاليد الامبراطورية « (٧١) وبناء على هذا الحق ، ومبررات تتفق وهواه ومصلحته السياسية ، أعلن اختيار أوتو الرابع دون نظر الى أصحاب الحق الشرعيين ، لكن مع ذلك أخذ يغير موقفه فيما بعد حسبما تحمل اليه رياح الحرب ومطامع كرسيه أنباء جديدة أو آمالا معقودة . ولا شك أن طول الحرب الأهلية الألمانية على النحو الذى أرادته البابوية وكان الرابع الوحيد منه فى نهاية الأمر النظام الاقطاعى فى ألمانيا ، والذى راح يثبت جذوره بصورة عميقة ، نتيجة ما أقدم عليه زعيما الحزبين المتصارعين من تقديم التنازلات واعطاء الامتيازات للامراء الألمان ، ارضاء لهم على مناصرتهم . وانسحب هذا أيضا على رجال الكنيسة الذين حققوا فى هذه الفترة ما لم يحققوه من قبل على عهد السكسونيين أو الفرنكونيين (٧٢) .

ومن الطريف أن الأمراء ، الذين رفضوا فى البداية العرض الذى تقدم به اليهم فيليب السوابى باختيار فردريك ابن أخيه هنرى السادس ملكا بدلا منه ، حتى لايتهم باغتصاب العرش ، عادوا الآن بعد أن أتخمت نفوسهم — وان كانوا مائزولون ينتظرون المزيد — الى التحول بولائهم المتقلب الى اختيار فردريك « الثانى » ملكا ، وهم الذين أغمضوا عيونهم عن حقه عمدا طوال هذه السنوات .

وباعتلاء فردريك الثانى عرش ألمانيا ، تدخل المشكلة الإيطالية ذروة تعقيدها فى السياسة الألمانية ، اذ يعد عهده تجسيدا كاملا لكل آمال الملوك الألمان تجاه ايطاليا ، وكل مظاهر العداء من جانب البابوية اراء

71) Decision of Innocent III in regard to the disputed election of Frederick II, Philip of Suabia, and Otto of Brunswick, 1201.

72) Concessions of Philip of Suabia to Innocent III, 1213.

الملكية الألمانية ، وفكرة الامبراطورية التي بذرت هي بنفسها منذ البدء بذرتها ، وكل جوانب الابتزاز وتعميق النزعات المحلية والشكل الاقطاعي لسلطات امراء العلمانيين والاكليروس على السواء • وقد افتتح عهده بوعد قطعه على نفسه للبابا انوسنت الثالث ، تنازل له فيه عن كل ماكان ينازل البابوات من أجله طوال قرنين كاملين مضيا^(٧٣) • يدفعه الى ذلك حداثة سنه واعتماده على تأييد البابوية هي التصديق على اختياره للعرش • وثنى ذلك بتعهد آخر للبابا في سنة ١٢١٦ ضمنه تنازله عن صقلية لابنه الطفل هنري^(٧٤) • ولو قدر لهذه التعهدات والوعود أن تنفذ كما جرت ، لانتهى الصراع بين البابوية والامبراطورية تماما ، الا أن فردريك أدرك فيما بعد أنه قد تنازل عن كل ما جاهد أسلافه الأباطرة من أجله حول فكرة الامبراطورية • ومن ثم عمل على رفض كل ماقطعه على نفسه ، عند تنويجه ، ففاد الامبراطورية بذلك وأسرته الى حتفها •

فمن المعروف — على النحو الذي أسلفنا — أنه منذ اعتلت أسرة الهوهنشتاوفن العرش في ألمانيا ، راحت مكانة ايطاليا في السياسة الألمانية تتزايد بصورة بدت وكأنها أمست شيئا لا غنى عنه لألمانيا ، ومثلت حجر الزاوية في سياستها كلها ، فمن كونراد الثالث حتى فردريك الثاني أضحي التحول كاملا — وذلك بحكم مولده من أم صقلية ، ونشأته في صقلية ، فأضحى صقليا خالصا^(٧٥) ، يريد أن يقيم في ايطاليا ملكية مستبدة على نسق ما أقامه في صقلية ، حيث جعل لنفسه الاشراف على القضاء الجنائي ، وحد من حريات النبلاء ورجال الدين والمدن ، ويعقد مؤتمرا في كريمونا Cremona سنة ١٢٢٦ يعلن فيه حرصه الكامل على حقوق الامبراطورية في السيادة على المدن اللومباردية ، ويشير مخاوف البابوية بمحاولاته المستمرة لاثبات سيطرته على جنوب ايطاليا ،

73) Promise of Frederick II to Innocent III, 1213.

74) Promise of Frederik II to resign Sicily after his Coronation as emperor, 1216.

75) Pirenne, op. cit., p. 314.

ثم لا يلبث أن يتوج ابنه هنري ليخلفه على مرش الامبراطورية مما أفزع البابوية (٧٦) ودفعها الى اتهامه من جانب كل من جريجورى التاسع وانوسنت الرابع ، بالهرطقة والتجديف ، ووصفه بأنه « الحيوان الذى جاء ذكره فى سفر الرؤيا •• عبد الشيطان • نبي أعداء المسيح » (٧٧) •

وساعد فردريك البابوية بسياسته على أن تسعى جاهدة لتحظيمه ، وأن تستغل هذه السياسة فى إثارة الاضطرابات ضده فى ألمانيا ، وتدبير الثورات والمكائد للخلاص منه والتحالف مع الأمراء لازاحة هذه الأسرة من العرش الألماني وبالتالي صقلية ، وفتح باب ألمانيا أمام النفوذ الأجنبى الفرنسى الانجليزى • بل وعرض تاجها على روبرت أخى القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، وهاكون Haakon ملك النرويج ، وأمير من أمراء الدانمرك ، وهنرى راسبى الثورنجنى Henry Raspe الذى قبله سنة ١٢٤٦ ، والذى كان على استعداد لتسليم كل سلطاته على الكنيسة الألمانية الى مندوبى البابا • فلما توفى فى العام التالى ، وشح انوسنت الرابع أحد صفائحه هو وليم الهولندى (٧٨) • ولا يمكن القول ان أيا من المرشحين قد حظى بالاعتراف الكامل بسيادته فى ألمانيا ، لكن وجهته نظر انوسنت كانت تتلخص فى إثارة العراقيل والعقبات أمام فردريك أكثر من استقرار العرش الألماني ، الى الحد الذى أقدم فيه البابا على ارسال مبعوث شخصى له الى ألمانيا هو فيليب أسقف فيرارا • Ferrara • يحمل تعليمات واضحة مؤداها خلق الصعوبات والفوضى أمامه للتاج (٧٩) •

(٧٦) فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ ،
ودكتور سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى : ج ١ ، ص ٣٦٣ — ٣٦٤
وأيضا :

Hyde, Society and politics in Medieval Italy, pp. 119-124.

77) General Council of Lyons, Sentence of deposition promulgated by Innocent IV.

(٧٨) للمزيد من التفاصيل عن دور البابوية هذا : راجع

Thompson & Johnson, op. cit., pp. 420-428.

Waly, Later Medieval Europe, p. 76.

وأيضا :

79) Scott, op. cit., p. 268.

فعلى امتداد عهد فردريك الثانى أتت صقلية وإيطاليا اهتمامى المقام الأول ، وحظيت العناصر الإيطالية بالمكانة المرموقة دوماً على حساب العناصر الألمانية ، حتى أمست ألمانيا إبان حكمه مجرد ولاية تابعة أو حتى مستعمرة تدار بواسطة نائب عنه ، هو ابنه هنري أولاً ثم كونراد من بعد . لقد كان كل اهتمامه فى ألمانيا محصوراً للحصول على اللقب الامبراطورى فقط . ومن هنا فإن اتجاهه الى ألمانيا كان لتدعيم نفوذه وسلطانه فى إيطاليا وصقلية⁽⁸⁰⁾ وهذا الاتجاه يمثل سياسة مضادة تماماً لما سعى اليه أوتو الأول ، عندما كان اهتمامه بإيطاليا بحثاً عن اقرار سلطانه فوق الإكليروس الألماني . وهكذا نرى أن التحول أصبح كاملاً خلال هذه القرون الثلاثة ما بين النصف الثانى من القرن العاشر ومنتصف القرن الثالث عشر .

ويتساءل هنري بيرين فى صراحة . . ماذا كانت ألمانيا تعنى لفردريك ؟ ويجيب فى وضوح : لقد كانت مجرد طريق عليه أن يسير فيه ليعتلى عرش القياصرة ، أما قوته الرئيسية فكانت تتمثل فى صقلية . . انه لم يكن حتى يعرف اللغة الألمانية⁽⁸¹⁾ . بل لقد كان فى رأى D. Waley يمقت ألمانيا⁽⁸²⁾ . ويعتبرها « أرض الاحراج الكئيبة ، والمدن الموحلة ، والقلاع المتفرة »⁽⁸³⁾ بينما كانت إيطاليا بالنسبة لفردريك — حسب تعبير كانتروفيش Kantorowicz

« مرفأه الأمين من الطوفان ، وفردوسه الحانى وسط غابة الأشواك »⁽⁸⁴⁾ ومن هنا كانت نظرتة الى ألمانيا تحمل فى طياتها كل معانى التشاؤم والقنوط ، ولما كان إيطاليا المولد والنشأة ، فإن نظرتة الى ألمانيا على هذا

80) Barraclough, op.cit., pp. 219-211.

81) Pirenne, op. cit., pp. 314-315.

82) Waley, op. cit., p. 75.

83) Barraclough, op. cit., p. 220.

84) Kantorowicz, Frederick the Second, p. 220.

المنحو ، باعتبارها مجرد مصدر للرجال والأموال ، أكثر من كونها مملكة يحكمها بصفة مباشرة ، أمرا لا يمكن تجنبه ، ومن ثم لم يكن بمقدوره أن يكون في مملكته الإيطالية والمانيا في وقت واحد ، ولذا كان الغياب عن أيهما لا بد أن يسوق الى تآكل السلطة الملكية بها .

وهذا هو ما حدث بالفعل لسلطة التاج في المانيا ، من جراء اقامته في صقلية وترك ابنه هنري في المانيا^(٨٥) ، وتمثلت خطورة ذلك في أن هذا الاختفاء للتاج جاء في أعقاب الحرب الأهلية الطويلة التي تركت بصماتها الواضحة على الكيان السياسي للسلطة الملكية في المانيا . مما أعطى الفرصة لكي تخضع المانيا بصورة عملية للامراء الاكليروسيين والعلمانيين . ولما بات كل ما يرجوه فردريك من المانيا أن تثير في وجهه المتاعب ، فقد أصبح على استعداد كي يذهب في هذا السبيل الى آخر المدى ، وأن يقدم من التنازلات ما يهيء له الفرصة لتثبيت دعائم سلطانه في صقلية وإيطاليا . ولعل هذا هو الذي يفسر اقدمه في عام ١٢٢٠ على منح الاكليروس الألماني امتيازات واسعة

Privilegium in

تعطيهم حقوقا

Favorem principum ecclesiasticorum

مطلقة في اختيار الأساقفة ورؤساء الأساقفة ، والتصرف في الاقطاعات الكنسية كيفما يحلو لهم ، واغفال الادعاءات الملكية برفع الضريبة عليها عند الضرورة أو بناء القلاع فوقها^(٨٦) وتنازل عن حق اقامة مراكز جديدة لتحصيل المكوس الجمركية أو دور لضرب النقود في الأقاليم الكنسية ، وترك للأساقفة كل ما كان قد بقي له من حقوق فيما تختص بالمحاكم وأهوار التقاضي ووعد بأن ينظر الى أي شخص يصدر ضده قرار الجرمان الكنسي على يد أحد الأساقفة على أنه خارج عن القانون . ولاشك أن هذا التصرف الذي جاء في صالح الكنيسة ، قد أساء بشكل واضح الى صورة العلاقات الطويلة بين الكنيسة والملوك الألمان ، ذلك أنه لم يعد لديها الآن ما يدفعها

(٨٥) حكم فردريك الثاني ثمانية وثلاثين عاما (١٢١٢ — ١٢٥٠) لم

يمكث منها في المانيا سوى تسع سنوات على فترتين متباعدتين .

86) Concessions of Frederick II to the ecclesiastical princes of Germany, 1220.

الى البحث عن التحالف مع التاج ، ومادامت القوة الحقيقية قد انتقلت الى أيدي الأمراء العلمانيين ، فلن أمراء الكنيسة راحوا ينظرون اليهم باعتبارهم سندهم الزمئي ، فأطاح ذلك بالبقية الباقية من الولاء الرسمي لذي الاكليروس تجاه الحكومة^(٨٧) وهكذا . . فان ما أقدم عليه فردريك الثاني هنا يعد تدميرا كاملا للتاج الألماني ، فقد صنع من كل أمير اكليروسي ، ملكا في الحقيقة وان كان لا يحمل اللقب ، فجرد التاج من حقوقه وسلطاته^(٨٨) .

وكانت هذه الامتيازات التي حصل عليها أمراء الاكليروس ، فاتحة خير وبركة للأمراء العلمانيين ، وكارثة خطيرة في الوقت نفسه للكيان السياسي في ألمانيا ، فقد راح هؤلاء الأمراء يسعون بكل ما وسعهم الجهد لتدعيم نفوذهم وزيادة سلطاتهم وتوسيع رقعات أراضيهم ومساحات ضياعهم . . منتهزين فرصة هجران الملك الألماني لمملكته الألمانية . لكنهم اصطدموا الآن بالسياسة الجديدة التي راح يتبناها هنري « السابع » مخالفا تماما لسياسة أبيه ، بل لسياسة أسلافه من الملوك الألمان جميعهم ، ذلك أن هنري أبصر أمامه طريقا واحدا للخلاص أو على الأقل للحد من نفوذ النبالة الألمانية ، العلمانية والاكليروسية ، ألا وهو الاعتماد على المدن التي كانت تحاول جاهدة أن تحمل لنفسها على المزيد من مظاهر الاستقلال ، وتسعى للتحرر من سلطان الأساقفة المتزايد ،

87) Scott, op. cit., pp. 266-267.

Barracclough, op. cit., p. 235.

وايضا

88) Thatcher & McNeal, op. cit. p. 233.

وكان فردريك الثاني يهدف أساسا بهذه التنازلات الى اجتذاب الكنيسة الألمانية الى صفه ، اذا لمحاولت البابوية التعرض له ولسياسته ، وذلك بما عدته خرقا للتعهدات التي قطعها على نفسه عند اعلانه ملكا ، بعدم توحيد ألمانيا وإيطاليا تحت سيادة شخصية واحدة في فريته ، وذلك عندما أقدم على اعلان ابنه هنري (السابع) ملكا على ألمانيا ، والذي كان يعد بصفة طبيعية ملكا على صقلية باعتباره الوريث الشرعي لابيه ، الذي لم يكن يعترف في قرارة نفسه بما اهد عليه في البدء البابوية .

وذلك كانت السمة الرئيسية للقومونات التي شهدتها العصور الوسطى فى الشمال الايطالى فى لمبارديا ، وفى ألمانيا كذلك . ومن الغريب أن ملكا مثل فردريك الثانى ، يتمتع بهذه القسدرات غير العادية ، والثقافة العالية ، والمهارة الادارية ، يغفل عن دور المدن الناشئة فى التصدى لسلطان أمراء الكنيسة والأمراء العلمانيين ، بل لقد أقدم على اتخاذ عدد من الاجراءات كان من شأنها حماية الأساقفة من « تطاول » المدن داخل الأقاليم الكنسية .

ومن البديهي أن ازدهار المدن كان مؤشرا طبيعيا نحو التحول عن النظام القطاعى والاقتصاد الزراعى ، والأرض باعتبارها المصدر الرئيسى للقوة الاقتصادية وبللتالى السياسية ، الى الاقتصاد النقدى والأموال والتجارة بصفاتها المحرك الأساسى لدولاب العمل الاقتصادى فيما بعد . وكان هذا يعنى بتعبير آخر انهيار النظام القطاعى ، وتعبير أكثر وضوحا ودقة ، انهيار سلطان الأمراء العلمانيين والكنسيين . وساعد على سرعة هذا التحول أيضا فى القرن الثالث عشر عاملان رئيسيان ، أولهما ما حصلت عليه مدن العصبة اللومباردية من اعتراف بحقوقها وامتيازات فى أخريات القرن الثانى عشر (١١٨٣) ، بمقتضى معاهدة كونستانس Constance ، التى انتزعتها هذه المدن من الامبراطور فردريك الأول برباروسا ، بعد أن لازم سوء الحظ حملاته المتتالية على ايطاليا (٨٩) فأصبحت هذه الامتيازات مثالا يحتذى لدى المدن الأخرى فى بقية الدول الأوروبية ، وحرص رجال المدن على الحصول على « البراءات » التى تقر مثل هذه الحقوق من جانب الأمراء . أما الثانى فهو الفشل الذى منيت به الحركة الصليبية مما أودى بها فى القرن الثالث عشر وعودة الأمراء الذين شاركوا فيها الى الغرب مفلسين ، أو موتهم فى الشرق ، وضياع الأرض الى صالح التاج بعد أن رهنها أصحابها قبل رحيلهم الى الأراضي المقدسة . ومن ثم راحت الأهمية الاقتصادية

(٨٩) انظر : The peace of Constance, January 1183.

والسياسية للارض تتولى الى الظل تدريجيا ، بينما أضحت المدن الناشئة بنشاطها التجارى تلعب دورا هاما راح يتراد مستقبلا بصفة مستمرة .

وهما يدعو للعجب أن كل ملوك المانيا دون استثناء عصبوا عيونهم عن ابصار هذه الأهمية التى تمثلها تلك المدن ، والأهمثلة على ذلك كثيرة تجلت بصورة واضحة فى رفض هنرى الرابع العرض الذى تقدمت به مدن العصبة اللومباردية لتأييده وهو فى رحلته الى مذبح الإذلال فى كانوسا ، ليقدم لجريجورى السابع كبرياء الامبراطورية قربانا ، ومع ذلك لم تتخل عنه هذه المدن فى أخريات عهده . ووقف فردريك بربروسا موقف الهداء المسافرين لقومون روما وأرنولد الهرشى Arnold of Brescia والمدن اللومباردية التى أرهقته من أمره عمرا خلال حملاته العسكرية الى ايطاليا ، والتى استنفذت كل طاقات ألمانيا من المال والرجال دون أن يفيق أو يحقق كسبا مميذا ، مع أن فردريك بربروسا كان يدرك يقينا أن أعداءه ، المدن اللومباردية والبابوية ، هما أيضا يحملان لبعضهما عداا كامنا ، وكانت الاستراتيجية تقتضيه أن يعمل كى يظل هذا العداء بينهما قائما ، بل وكان فى مقدوره أن يحقق ذلك بدلا من دفعهما — بسياسته — الى تكوين جيش واحد ضده . وكان عليه فى الوقت نفسه أن يكون عارفا بقدرته التى لا تستطيع أن تحارب كل أعدائه دفعة واحدة ، وأن تحصل له على كل الحقوق ، وكان من الأفضل بالنسبة له أن يتفق مع أقل خصومه شأنا حتى يضمن تعاونهم معه ضد عدوه الأكبر البابوية ، التى كانت هى الأخرى خصمهم العنيد . غير أن هذا هو الشيء الذى لم يستطع بربروسا ، بل ولم يرد أن يتقدم عليه^(٩٠) وحتى فردريك الثانى نفسه ، الذى كان يجب أن يكون من بين الأباطرة أكثر تعقلا وادراكا لمغبة هذا الأمر ، استمر هو الآخر فى المراهنة على الجواد الخاسر ، وذلك باعتماده على الأمراء العلمانيين والاكليروسين

90) Thompson & Johnson, op. cit., p. 430.

الذين كانوا من الطبيعي أن يهجروا جانب الامبراطورية قور حصولهم على ما يبتغون •

ولا ريب أن الامتيازات التي منحها فردريك الثانى لرجال الاكليروس ، وخاصة تلك التى تتعلق بموقف الأساقفة تجاه المدن ، تعد شيئا خطيرا ، ليس فقط لأنها تشير الى تجل السيادة الملكية فى الأقاليم الخاضعة لرجال الكنيسة الطامحين الذين كانوا يقتربون الآن من الاستقلال الكامل ، بل لأنها كانت المثل الأخير فى العمل المقدور على كل أباطرة ألمانيا الذى حال دون ادراكهم ، كما أدرك ملوك آل كابيه فى فرنسا ، أن الصراع ضد النظام الاقطاعى ، وهو الشيء الذى لا يمكن تجنبه اذا أريد قيام دولة قوية ، كان يقتضى بالضرورة أن تكون هذه المدن الناشئة هى الحليف القوى والطبيعى للملوك فى هذا الصراع ^(٩١) ولم يحاول هؤلاء الأباطرة أن يتعلموا شيئا من تجربة هنرى الرابع فى أيامه الأخيرة عندما بقيت هذه المدن على ولائها له ، بعد أن تخلت عنه الكنيسة ، وعاداه النبلاء ، وتمرد عليه حتى ابنه •

ولما كان هنرى « السابع » قد استوعب الأمر بكامله على هذا النحو ، ولما كان يعتبر نفسه فى المرتبة الأولى ملكا ألمانيا أكثر من اهتمامه بأن يكون امبراطورا رومانيا ، وهو ماسار على الضد منه كل خلفاء أوتو الأول ، فقد وضع ثقته كاملة فى المدن الألمانية التى أعطته هى الأخرى تأييدها المطلق ضد عدوهم المشترك ، الأمراء الاكليروسيين والعلمانيين • واستشعر هؤلاء الخطر يأتهم من جراء السياسة الجديدة التى ينسج هنرى خيوطها ، مهددا بالضياع كل سلطاتهم ومكاسبهم التى حصلوا عليها خلال السنوات الطوال التى كان التاج الألماني يعانى فيها أوجاع الضعف وآلام التدخل البايوى • ومن ثم أعلنوها ثورة عارمة ضد هنرى والمدن ، مما هدد ألمانيا بفوضى حرب أهلية جديدة كانت قد

91) Thompson & Johnson, op. cit., pp. 418-419.

برئت من بعض جراحاتها منذ عشرين عاما فقط • واستدعى ذلك قدوم فردريك الثانى على عجل ليقرر الأمور فى ألمانيا ، حيث وجد نفسه مسوقا الى السير فى نفس الدرب الذى اختطه دون تدبر أسلافه • فأقدم على منح الأمراء العلمانيين امتيازات Statutum in favorem Principum (١٢٣١ - ١٢٣٢) حققت لهم ما كان قد أعطاه للأمراء الاكليروس منذ اثنتى عشرة سنة خلت ، فأضحت لهم السيادة كاملة على اجراءات التقاضى فى أقاليمهم ، وحق اقامة دور سك النقود ، واستخدام الطرق والمجارى المائية ، واتخاذ الاجراءات التى تكفل اغلاق أبواب المدن فى وجه الاقنان الهاربين • بل ان تلك الامتيازات قضت بأن كل القوانين الادارية الجديدة والضرائب المستحدثة ، لا يصبح لها الصفة الشرعية الا بعد استشارة الأمراء العلمانيين أو الكهنة لهذه الأقاليم^(٩٢) وهكذا فان هذه الامتيازات التى منحت الآن للأمراء العلمانيين ، وقرينتها التى سبق اغداقها على الاكليروسيين ، أدت الى اتمام كمال التفسخ السياسى للنسق الاقطاعى فى ألمانيا ، وبصفة قانونية • وبهذا ذهب مع الريح سلطان الملك الألماني •

ويعلق المؤرخ الألماني فردريش هير F. Heer على ذلك ، بالنعمى على ما ذهب اليه الامبراطور فردريك الثانى معتبرا اياه أستاذًا لتوماس الأكويني Thomas Aquinas فى شكه المزمع وربيته تجاه المدن^(٩٣) ، ففقد فردريك الثانى بذلك نصيرا قويا كان من الممكن أن يقدم له يد العون كاملة فى صراعه ضد البابوية وحلفائها الأمراء فى داخل ألمانيا • ولما لم يكن هنرى الابن راضيا عن هذا المنهج ، فقد أقدم على التحالف مع مدن العصبة اللومباردية والمدن الألمانية التى وقفت الى جواره ، وأعلن الثورة فى ألمانيا ، مما دفع أباه الى القدوم فى زيارته الأخيرة الى المانيا

92) Statute of Frederick II in favor of the princes, 1231-1232.

93) Heer, The Medieval history, p. 71.

وايضا :

Otto Freiheer, Constitutional reorganization and reform under the Hohenstaufen, p. 211.

عام ١٢٣٥ ، ليخمد هذه الثورة وليقبض على ابنه وينفيه الى أبوليا Apulia . ليظل هناك فى سجنه حتى يأتيه الموت سنة ١٢٤٢ (٩٤) .

هكذا أمست الصورة العامة لألمانيا فى منتصف القرن الثالث عشر حالكة السواد ، فالامبراطور مشغول عن بلده بمملكته فى صقلية ، والبابوية تسعى حثيثا لتدمر كل شىء فى صقلية وألمانيا على السواء ، وأمراء الدين والدنيا حققوا كل ما تصبو اليه نفوسهم وشهوة السultan فى صدورهم ، وانفصلت بوهيميا لتصبح مملكة مستقلة ، واتحد انفرسان التيوتون مع فرسان ليفونيا Livonia واستولوا على شواطئ البحر البلطى لتزداد سطوتهم ضد التاج ، وازداد نمو الحن الألمانية مثل وورمز وميتر وكولونى وبازل مما قوض دعائم السلطة المركزية . وضدق على الامبراطورية الألمانية ملاحظة المندوب البابوى همبرت Humbert فى مجمع ليون المنعقد سنة ١٢٧٤ « انها أمست الى الضياع » quasi ad nihilum لقد أضاع الأباطرة الألمان سلطانتهم فى ألمانيا بتدخلهم المستمر فى إيطاليا ، فأصبحوا كمن يبيع رخيصا ليشترى غاليا (٩٥) .

على هذا النحو ، فان انتهاء حكم أسرة الهوهنشتاوفن بأعدام كونزادينو عام ١٢٦٨ — كما أسلفنا — أو حتى وفاة فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ ، يحدد خاتمة حقبة معينة فى تاريخ ألمانيا ، فقد ولى الان زمان الملوك الأقوياء بها وأقبل عصر أمراء الاقطاع . لقد حقق النظام الاقطاعى فى ألمانيا آنذلك انتصارا باهرا ، أو بعبارة أخرى ، لقد فشل الألمان فى التغلب على مشكلة الوحدة السياسية . وكان الاقتتاع الثابت لدى المؤرخين الألمان أن السبب الرئيسى فى اخفاق ملوك ألمانيا فى ذلك ،

(٩٤) يختلف المؤرخون حول وفاته ، فيعتقد بعض انه ضاق ذريعا بعمليات المراقبة المستمرة التى فرضت عليه ، فألقى بنفسه من أعلى قمات منتجرا ، بينما يرجح آخرون أن أباه قد حرض على قتله ، ويدللون على صدق دعواهم بما أقدم عليه القسيس فى عظته عند دفنه حين قرأ آية الكتاب المقدس « ثم مد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه » (تكوين ٢٢ / ١٠) . للمزيد من التفاصيل انظر : Scott, op. cit. p. 288.

95) Mundy, Europe in the high Middle Ages, pp. 368-370.

هو ضياع جهدهم وطاقاتهم وموارد بلادهم ، بل ودماء الألمان أنفسهم جرياً وراء أحلام بعيدة المثال عن السيادة على إيطاليا وإحالية الامبراطورية^(٩٦) ، وارتسمت علامات الندم على أقاليمهم وهم يلومون على ملوك ألمانيا ، مبينين أنهم لو قصرُوا جهدهم على ألمانيا وحدها لحالوا دون تفسخها على هذا النحو ، ولأمكن تحقيق الاتحاد الألماني الذي تأخر إلى القرن التاسع عشر قبل ذلك بسبعة قرون أو ربما خمسة على الأقل^(٩٧) . فلقد ظل ملوك ألمانيا لفترة طويلة بعد تأكيد فشل سياسة الأوتويين تجاه الامبراطورية ، يرفضون بعناد الاقرار بفشل هذه السياسة . وبدلاً لهم جوهرياً وجود نوع من الوحدة السياسية ، شأن عالم المسيحية عقيدياً . ولكن لا ألمانيا ولا إيطاليا غدت احدهما قوية ، اذ أضاع الأباطرة جهودهم عبثاً في حملات عسكرية متتابعة إلى إيطاليا ، بدلاً من بناء مملكة قوية فوق أراضيهم ، وابتعدت الدولتان قصياً عن حسن الادارة ومركزية السلطة التي تمتعت بهما غيرهما من دول الغرب الأوروبي^(٩٨) فينتمة كان أشهر معاصري فيرهريك الثاني ، وهما لسويس التاسع ملك فرنسا ، وهنري الثالث ملك إنجلترا ، أقل منه كفاءة ومقدرة وثقافة ، إلا أن كلا منهما ترك دولة تنحوي إلى المستقبل ، وليست ظلاً لماض فقط ، بعد أن اهتمت حكومتاهما باحتياجات شعبيهما^(٩٩) .

لقد حاول ملوك ألمانيا على امتداد قرنين ونصف من الزمان اقتفاء خطى شارلمان أو منافسته ، ولكن قليلاً منهم هو الذي كان يصلح حتى كي يكون فقط خليفة لأوتو الأول . فمن أجل الامبراطورية نسي كثير من الأباطرة خلفاء أوتو أنهم ألمان ، وفي طريق نضالهم من أجل الامبراطورية ، فشلوا في تأمين حتى دوقية^(١٠٠) بل ليس من المبالغة في شيء القول

96) Thompson & Johnson, op. cit., p. 430.

97) Ibid, 430-431.

98) Strayer & Munro, op. cit., p. 153.

99) Ibid, 353.

100) Stephenson, op. cit., p. 245.

انه لم يكن هناك فى حقيقة الأمر ملوك لألمانيا ، بل كانوا يعرفون بالملك الرومانى *Rex Romanorum* والامبراطور الرومانى *Imperator Romanorum* وليس هناك — على حد تعبير هنرى بيرين — كلمات لوصف ألمانيا الا القول انها ذابت فى الامبراطورية ، بعد أن أهلك ملوكها قواهم فى تبنى السياسة الامبراطورية • حقيقة لقد كانوا جميعا ألمانا ، لكنهم لم يضعوا أبدا سياسة ألمانية ، وكانوا بصفة مستمرة غارقين فى ايطاليا • لقد قدر عليهم أن تنتقطع أنفاسهم فى ملاحقة سياستهم التى وضعوها • ومن ثم أمست ألمانيا ضحية الامبراطورية^(١٠١) فقد خرجت فى نهاية الأمر ضعيفة اذا ما قورنت بانجلترا أو فرنسا ، فبينما عمل ملوك الأخيرتين على تركيز سلطتهم المركزية وتقوية نفوذهم والحد من سلطان الأمراء ، وزيادة مساحة أراضي التاج ، كان ملوك ألمانيا على العكس من ذلك تماما ، اذ حاولوا فرض سيطرتهم وسلطانهم على مناطق يختلف أهلها لسانا وحضارة وأهواء ، ودخلوا فى صراع مع المدن اللومباردية والنورمان فى جنوب ايطاليا وصقلية وظلوا طيلة قرنين هدفا لعداوة لاتتقطع وتتدخل مستمر فى شؤونهم من جانب البابوية • وحتى فى هذه الأخيرة كان حظ الملك الألمانى أسوأ بكثير من قرينيه فى فرنسا وانجلترا ، فوليم الفاتح تحدى جريجورى السابع ، ووليم الأحمر قاوم أنسلم ، أما هنرى الرابع وبرباروسا فكانا عليهما أن يتصارعا مع بابوات يجمعون فى شخصياتهم هلدبراند وأنسلم معا • هذا بالاضافة الى أن الكنيسة الألمانية كانت شيئا مخيفا من جراء ممتلكاتها الواسعة ، والتى أغدقها عليها الملوك الألمان أنفسهم ، بحيث لا يجاريها مطلقا قريناتها فى الدول الأوروبية الأخرى^(١٠٢) •

101) Pirenne, op. cit., p. 140.

102) Bryce, op. cit., p. 213.

وللمزيد من التفاصيل عن العلاقة بين ولم الفاتح والبابا جريجورى السابع ، انظر Douglas, William the conqueror, pp. 340-341. وعن وليم الأحمر وأنسلم انظر Barlow, op. cit., pp. 156-158.

ومن الغريب أن هذه النهاية التى آلت اليها كل من إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، اذ خرجت الأولى من النظام الاقطاعى بملكية « دستورية » اذا صح هذا التعبير آنذاك ، وآل الأمر فى الثانية الى ملكية مستبدة ، بينما ودعت ألمانيا دنيا العصور الوسطى ممزقة شر ممزق • نقول ان هذه النهايات لا تتفق مع ما جرى عليه الأمر مثلا بعد انهيار امبراطورية شارلمان ، فقد كانت ألمانيا أسعد حظا منهما ، ففى فرنسا مثلا دخلت البلاد فى حرب أهلية لمدة قرن بين أفراد البيت الكارولنجى وأمراء باريس ، فى الوقت الذى أقدم فيه الأمراء الألمان على اختيار ملكهم أرنولف الحفيد غير الشرعى للويس الألمانى سنة ٨٨٧ ، وكونراد دوق فرنكونيا بعد وفاة لويس الطفل ٩١١ • ورغم أن هذا أدى الى احياء التقليد الجرمانى القديم الخاص بحقهم فى اختيار الزعيم ، وقاد الى تقوية نفوذ النبلاء واضعاف سلطة الملكية على المدى الطويل ، إلا أن النتيجة المباشرة كانت اعطاء ألمانيا حاكما قويا (١٠٣) وتمثل ذلك بصفة خاصة فى القرنين التاسع والعاشر ، وبشكل أساسى زمن أوتو الأول وسميه الثانى ، بل وأيضا حتى عهد فردريك بربا روسا ، اذا استثنينا فترة التدخل البابوى السافر فى شئون ألمانيا على عهود هنرى الرابع ولوثر وكونراد ، فقد كانت الملكية الألمانية تقوم فى هذه الفترة على هيراركية عمادها الموظفون والدوقات والكونتات والأساقفة ومقدمو الأديرة ، يعينهم الملك ويدينون له بالولاء ، ولكن الأمر انتهى الى ملكية تستمد قوتها من مجموعة من الأفصال الاقطاعيين ، من غير ذوى الأصول النبيلة ، علمانيين واكليروسيين (١٠٤) •

والى جانب هذه النتائج المدمرة التى أفرزها الصراع بين البابا والامبراطور من ناحية ، وهذا والأمراء من الثانية كانت هناك كارثة ثقافية هى فقدان ألمانيا للزعامة الفكرية فى غرب أوروبا •• ففى سنة

103) Strayer & Munro, op. cit., p. 147.

104) Ch. Brooke, Europe in the central M. Ages, p. 157.

١٠٥٠ كانت الأديرة الألمانية مراكز كبرى للتعليم والفن كما كانت مدارس اللاهوت والقانون الكنسي الألمانية لاتبارى فى أى مكان آخر فى أوروبا . غير أن الحرب الأهلية الطويلة والمنازعات الشرسة بين الكنيسة والدولة استنزفت طاقة الكنيسة الألمانية وحولت اتجاهها ، بحيث أصبح الكليروس مثابرا على تأليف المقالات عن العلاقة بين الدولة والكنيسة ، وتجاهلوا التقدم الهائل فى الفلسفة والقانون والأدب والفن الذى كان يجرى خلال الفترة نفسها غرب الراين وجنوب الألب . وهكذا تخلفت الحياة الفكرية فى ألمانيا عن عصرها ، ثم ما لبثت أن باتت متأخرة وعتيقة^(١٠٥) . بينما عكف العلماء الفرنسيون والايطاليون على خلق مؤسسة جديدة للفكر الراقى والتعليم العالى ، وهى المؤسسة التى قدر لها أن تلعب الدور الرئيسى فى الحياة الفكرية فى العصور الوسطى العالية . فى الوقت الذى لم تقم فيه فى ألمانيا جامعة من هذا النوع قبل القرن الرابع عشر^(١٠٦) بل ان فردريك الثانى نفسه عندما أقدم على انشاء جامعة ، أقامها فى نابولى ولم ينشئها فى ألمانيا . لقد تخلف الألمان ثقافيا كما تخلفوا سياسيا خلال النزاع على التقليد العلمانى والسيادة العالمية وأنغمسهم فى المشكلة الايطالية ، ولم يستعيدوا مكانتهم أبداً على الأقل خلال العصور الوسطى .

وهكذا يمكن القول ان ألمانيا منذ نهاية القرن الثانى عشر لم تعد تلعب الا دورا تافها لا قيمة له على الاطلاق فى السياسة الأوروبية ، رغم أنها تحتل مساحة شاسعة جدا على الخريطة الأوروبية ، حيث امتدت من المستعمرات الألمانية على الألب الأدنى حتى نهر نيمن Niemen بحيث جاورت البحر من ناحية والصقالبة من ناحية أخرى فى روسيا

105) Cantor, op. cit., pp. 303-304.

De Wulf, Philosophy and Civilization in the Middle Ages, pp. 281-283.

106) Cantor, op. cit., p. 304.

وبولندا (١٠٧) بل ان بعض المؤرخين يذهبون الى أبعد من ذلك عندما يعتبرون سنة ١٠٥٦ عندما توفي هنري الثالث ، العام الذى لم تعد فيه ألمانيا الحقيقة الرئيسية فى التاريخ الأوروبى (١٠٨) .

لقد كانت ايطاليا جرحا داميا فى جسم ألمانيا ، ظل ينزف طيلة العصور الوسطى حتى أغيا ذلك الجسد ، فأمسى شاحبا الى ذبول ، وتكاثفت عليه مباحث الجراحين تحاول أن تجد له طبابا شافيا وعلاجا ناجعا ، لكن الداء كان قد تأصل فى مباحث الجراحين أنفسهم ، أغنى أباطرة المانيا — الذين استمروا ٥٠٠ رغم — القتل الذى لاحقهم — لعبة التدخل فى المشكلة الإيطالية ، فساقوا دولتهم الى التفكك والانحلال الذى لم تبرأ منه ، وايطاليا هي الأخرى الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

١٠٧) Pirenne, op. cit., p. 331.

١٠٨) Strayer & Munro, op. cit., p. 161.

١٠٩) Pirenne, op. cit., p. 331.

١١٠) Pirenne, op. cit., p. 331.

١١١) Pirenne, op. cit., p. 331.

١١٢) Pirenne, op. cit., p. 331.

١١٣) Pirenne, op. cit., p. 331.

١١٤) Pirenne, op. cit., p. 331.

١١٥) Pirenne, op. cit., p. 331.

١١٦) Pirenne, op. cit., p. 331.

١١٧) Pirenne, op. cit., p. 331.

١١٨) Pirenne, op. cit., p. 331.

١١٩) Pirenne, op. cit., p. 331.

١٢٠) Pirenne, op. cit., p. 331.

١٢١) Pirenne, op. cit., p. 331.

١٢٢) Pirenne, op. cit., p. 331.

١٢٣) Pirenne, op. cit., p. 331.

١٢٤) Pirenne, op. cit., p. 331.

١٢٥) Pirenne, op. cit., p. 331.

١٢٦) Pirenne, op. cit., p. 331.

١٢٧) Pirenne, op. cit., p. 331.

١٢٨) Pirenne, op. cit., p. 331.

١٢٩) Pirenne, op. cit., p. 331.

١٣٠) Pirenne, op. cit., p. 331.

المصادر والمراجع

أولا : الوثائق والمصادر

- Adrian IV, (Pope 1154-1159) :
 - Treaty of Adrian IV and William of Sicily, 1156.
 - Letter of Adrian IV to Frederick I, 1157.
 - Letter of Adrian IV to Frederick I, 1158.
- Augustinus, De civitate Die, translated into English in two vols. by Marcus Dods, Edinburgh, 1949.
- Conrad III, (Emperor 1138-1152) :
 - Letter of Conrad III to the Greek (Byzantine) emperor John Comnenus, 1142.
- Einhard, Vita Caroli, translated into English in : two lives of Charlemagne» by Lewis Thorpe, Penguin books, 1969.
- Frederick I Barbarossa (emperor 1152-1190) :
 - Letter of Frederick I to Eugene III, 1152.
 - Manifesto of Frederick I, 1157.
 - The peace of Constance, 1183.
- _____ and Eugene III (pope 1154-1153).
 - Treaty of Constance 1153.
- Frederick II (emperor 1212-1250) :
 - Promise of Frederick II to Innocent III, 1213.
 - Promise of Frederick II to resign Sicily after his coronation as emperor, 1216
 - Concessions of Frederick II to the ecclesiastical princes, 1220.
 - Statue of Frederick II in favor of the princes of Germany, 1213-1232.

- **Gregory VII (Pope 1073-1085) :**
 - **Letter of Gregory VII to Henry IV, 1075.**
 - **First deposition and excommunication of Henry IV by Gregory VII.**
- **Innocent III (Pope 1198-1216) :**
 - **Decision of Innocent III in regard to the disputed election of Frederick II, Philip of Suabia, and Otto of Brunswick, 1201.**
- **Innocent IV (Pope 1243-1245) :**
 - **Sentence of deposition of Frederick II promulgated by Innocent IV in the general Council of Lyons 1245.**
- **Liudprand (Bishop of Cremona)**
 - **Report of his embassy to Constantinople, 968.**
- **Nicholas II (Pope 1059-1061) :**
 - **Papal election decree of Nicholas II, 1059.**
- **Philip of Suabia (Emperor 1197-1208) :**
 - **Concessions of Philip of Suabia to Innocent III, 1203.**
- **Robert Guiscard, Oath, of Robert Guiscard to Nicholas II 1059.**
- **Cantor (N.F.), The Medieval World 300-1300, London 1968.**
- **Henderson (E.F.), Select historical documents of the Middle Ages, London 1925.**
- **Lyon (B. D.), The High Middle Ages 1000-1300, U.S.A. 1964.**
- **Thatcher (O.J.) & McNeal (E.H.),**
 - **A source book for Mediaeval history Selected documents illustrating the history of Europe in the Middle Age, New York.**
- **Tierney (B.)**
 - **The Crisis of Church & State 1050-1300, with selected documents, U.S.A. 1964.**
 - **The Middle Ages, Vol. I ; Sources of Medieval history New York 1978.**

ثانيا : المراجع الأوروبية

- Barlow (F.), The feudal Kingdom of England, 1042-1216, London, 1974.
- Barracrough (G.), Mediaeval Germany, 911-1250 : essays by German Historians, translated and ed. by Barracrough, Oxford 1948.
- The Origins of Modern Germany, Oxford 1947.
- Barry (W.), The Papal Monarchy, from st. Gregory the Greek to Boniface VIII, New York 1906.
- Brooke (Ch.), Europe in the Central Middle Ages, 962-1154, London, 1966.
- Brooke (Z.N.), A history of Europe from 911 to 1198, London 1966.
- Bryce (J. A.), The Holy Roman Empire, London 1950.
- Cambridge Medieval History, 8 Vols. planned by J. B. Bury, Cambridge 1964.
- Cantor (N.F.), Medieval history : the life and death of a civilization, New York, 1966.
- وقد قام الدكتور قاسم عبده قاسم بترجمة هذا الكتاب في جزعين ، صدر الأول منهما عن دار المعارف في عام ١٩٨١ ، والثاني تحت الطبع . وقد تفضل وشكورا باطلاعي على النسخة الخطية لترجمة الجزء الثاني .
- Davis (R.H.G.), A history of Medieval Europe from Constantine to St. Louis, London 1957.
- De Wulf (M.), Philosophy and Civilization in the Middle Ages, New York, 1953.
- Douglas (D. C.), William the Conqueror, London, 1969.
- Freiherer (O.), Constitutional reorganization and reform under the Hohenstafen, trans. from German by Barracrough in, Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 203-233).
- Haskins (ch.), The Normans in European history, New York, 1966.

- Heer (F.), *The Medieval world*, trans. from German by Janet Sondheimer, New York, 1963.
- Hyde (J. K.), *Society and politics in Medieval Italy, the evolution of the civil life, 1000-1350*, London 1973.
- Joachimsen (P.), *The investiture contest and the German constitutions*, trans. from German by Barracclough in (*Mediaeval Germany*, Vol. II, pp. 95-129).
- Mitteis (H.), *Feudalism and the German Constitution*, trans. from German by Barracclough in (*Mediaeval Germany*, Vol. II, pp. 235-279).
- Mundy (J. H.), *Europe in the High Middle Ages, 1150-1309*, London 1973.
- Paolucci (H.), *The political writings of St. Augustine*, Indiana 1962.
- Pirenne (H.), *A history of Europe*, London 1951.
- Scott (W.), *Medieval Europe*, London 1975.
- Stephenson (C.), *Mediaeval History*, New York, 1962.
- Strayer (J.), Munro (D.), *The Middle Ages, 395-1500*, New York 1970.
- Thompson (J. W.), Johnson (E. N.),
 - *An introduction to Medieval Europe, 300-1500*, New York 1965.
- Pirenne, op. cit., pp. 314-315.
- Tout (T. F.), *The Empire and the Papacy*, London 1924.
- Ullmann (W.), *A short history of the Papacy in the Middle Ages*, London 1974.
- Vasiliev (A. A.), *History of the Byzantine Empire*, 2 Vols. Madison and Milwaukee 1964.
- Waley (D.), *Later Medieval Europe from St. Louis to Luther*, London 1976.

ثالثا : المراجع العربية والمصرية

ابراهيم طرخان (دكتور) :
السلطان في أوروبا في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ .

اسحق عبيد (لكتور) :
الدولة البيزنطية في عصر باليولوغوس ، منشورات جامعة
بنغازي ، طبعة بيروت بدون تاريخ .

جوانفيل (ج) :
للقديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام ،
المعروف بذكرات جوانفيل ، ترجمة وتعليق دكتور حسن
حيثي - القاهرة ١٩٦٨ .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :
العدوان الصليبي على مصر ، هزيمة لويس التاسع في
المنصورة وفارسكور . القاهرة ١٩٦٩ .

ديفنز (ر . ه . م . س) :
شارلمان ، ترجمة دكتور السيد الباز العريني ، القاهرة ١٩٥٩ .
سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول : التاريخ السياسي
القاهرة ١٩٥٨ .

فيشر (ه) :
تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جزءان . ترجمة دكتور
١٩٦٦ .

محمد مصطفى زيادة ودكتور السيد الباز العريني ، القاهرة
نور الدين حاطوم (دكتور) :
تاريخ العصر الوسيط في أوروبا ، بيروت ١٩٦٧ .

هارتمان (ل . م .) وباراكلاف (ج) :
الدولة والأمبراطورية : ترجمة وتقديم وتعليق دكتور جوزيف
نسيم . القاهرة ١٩٧٠ .

هسي (ج . م .) :
العالم البيزنطي ، ترجمة وتقديم وتعليق دكتور رافت
عبد الحميد . القاهرة ١٩٨٢ .